تضحيات في سبيل العلم



تضحيات في سبيل العلم

الأستاذ الدكتور
محمد عمر الحاجي

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2007 - 1427

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

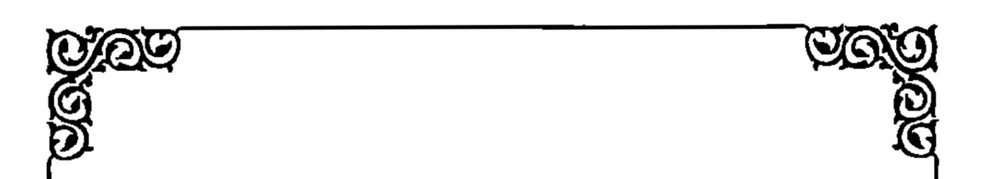


من وحي التنزيل

قال الله تعالىٰ :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٨-١٩]

صدق الله العظيم



من مشكاة النبوة

قال رسول الله ﷺ :

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

سنن الترمذي : رقمه (٢٦٤٣) .

سنن ابن ماجه : رقمه (٢٢٧) .





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الذي منَّ على هذه الأمة بأن أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، وبأن جعل منهم طائفةً من العلماء قائمين على الحق ظاهرين على غيرهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله تعالى .

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين ، وبعد :

في كتاب الاستعداد ليوم المعاد للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى .

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث : الطِّيبُ ، والنساءُ ، وجُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة » .

وكان معه أصحابه جلوساً ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : صدقتَ يارسولَ الله . وحُبِّبَ إلي من الدنيا ثلاث : النظر إلى وجه رسول الله ، وإنفاق مالي بين يدي رسول الله ، وأن تكون ابنتي زوجاً لرسول الله ﷺ .

فقال عمر رضي الله عنه : صدقت يا أبا بكر ، وحُبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث : الأمرُ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والثوب الخَلِق .

فقال عثمان رضي الله عنه : صدقت ياعمر ، وحُبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث : إشباع الجيعان ، وكسوة العُريان ، وتلاوة القرآن .

فقال علي رضي الله عنه : صدقت يا عثمان ، وحُبِّبَ إلي من الدنيا ثلاث : الخدمة للضيف ، والصوم في الصيف ، والضرب بالسيف .

وعلَّق شيخنا الراحل محمد سليم الرفاعي رحمه الله تعالى على ذلك بقوله : وأنا حُبِّبَ إلي من الدنيا ثلاث : خدمة الفقراء ، وزيارة الأولياء ، ومجالسة العلماء .

لكن لماذا مجالسة العلماء ؟ .

لأنهم الشموع التي تحترق لتضيء الطريق للناس ، لأنهم ضحّوا بالغالي والنفيس من أجل نقل هذا العلم إلى الأجيال القادمة .

صحيح أنهم تعبوا وبذلوا وضحّوا ، لكن الله لن يضيع أجر من أحسن عملاً ، فعوضهم ذكاءً ومقدرة على الحفظ يندر أن يبلغها أحدٌ في أي زمان ومكان ، وقد أورد التاريخ جزءاً من ذلك :

قال الأصمعي : ما بلغتُ الحلمَ حتى رويتُ اثني عشر ألف أرجوزة من الشعر ، فقيل له : منها البيت والبيتان ؟ فقال : ومنها المئة والمئتان ! !

وكان أحدهم يحفظ عن ظهر قلب كتاب الأغاني للأصفهاني ، وهو اليوم مطبوع في واحدٍ وعشرين جزءاً ! !

وقال الشعبي : لست على شيء من العلوم أقل رواية مني للشعر ، ولو شئت لأنشدت شهراً ، ولا أعيد بيتاً ! !

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنه : رحم الله لبيداً ، كان ينشد :

ذهب الذي يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خلفٍ كجلد الأجربِ!

فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ثم قالت : إني لأروي ألف بيتٍ له ، وإنه أقلُّ ما أروي لغيره!!

وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة ، منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟!

وقد أطلق العلماء ألقاباً على بعض الحفظة :

(فالحافظ) : من حفظ مئة ألف حديث متناً وإسناداً ، ووعى ما يحتاج إليه!!

(والحجة) : من أحاط بثلاثمئة ألف حديث!!

(والحاكم) : من أحاط علمه بجميع الأحاديث النبوية المروية ، متناً وإسناداً وجرحاً وتعديلاً وتاريخاً!

(وأمير المؤمنين) : من أحاط بجميع المرويات!![1] .

لكن كيف حمل الرعيل الأول والسلف الصالح العلم ونقلوه ؟! ثم كيف اندفع أولئك الناس نحو مسألة العلم والتعليم ؟ ثم هل الدين يعارض العلوم ؟ ثم ماالذي استفاده العلماء من كل تلك التضحيات ؟ وقفات عند كل تساؤل ، لنناقش الأمر على ضوء القرآن والسنة والواقع ، ولنتوقف عند بعض تراجم أولئكم الأعلام ، عسى أن يكون لنا في ذلك أسوة وقدوة .

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : الحديث النبوي الشريف (تاريخه ، علومه ، مصطلحه) ، للمؤلف .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الأول

منزلة العلم
في ميزان الشريعة الإسلامية

الفصل الأول

العلم في اللغة والاصطلاح

في قواميس اللغة العربية والاصطلاح حديث مستفيض عن مسألة العلم ، من ذلك قول العلامة مجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) :

(عَلِمَهُ ، كسمعه ، علماً ، بالكسر .عَرَفَهُ ، وعلم هو في نفسه ، ورجل عالم وعليمٌ . ج : علماء وعُلاّمٌ ، كجهال ، وعلَّمه العلم تعليماً وعِلاَّماً ، ككذّابِ ، وأعلمه إياه فتعلَّمه ، والعلاّمة ، مشدَّدةً وكشدّادِ وزنَّارِ ، والعلمة ، كزبرجةٍ ، والتِّعلامة : العالم جداً ، والنسَّابة ، وعالمه فعلمه ، كنصره : غلبه علماً ، وعلَّم به ، كسمع : شعر ، والأمر : أتقنه ، كتعلَّمه. . .)[1] .

وقال العلامة الراغب الأصفاني (ت : ٤٢٥هـ) :

العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك ضربان :

أحدهما : إدراك ذات الشيء ، والثاني : الحكم على الشيء بوجود شيءٍ هو موجود له ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه .

فالأول : هو المتعدِّي إلى مفعولٍ واحدٍ نحو : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

---

(١) القاموس المحيط : ١/ ١٥٠١ ، ط ١/ ٩٧ دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

والثاني : المتعدي إلى مفعولين : نحو قوله : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

وقوله : ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾

[المائدة : ١٠٩]

إشارة إلى أن عقولهم طاشت ، والعلم من وجهٍ ضربان : نظري وعملي .

فالنظري : ماإذا عُلم فقد كَملَ ، نحو : العلم بموجودات العالم .

والعملي : مالايتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات. . . .[١] .

وتحدث العلامة ابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) عن أصناف العلوم فقال :

إن العلوم صنفان : صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه .

والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها ، وأنحاء براهينها ، ووجوب تعليمها ، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان أو فكر .

والثاني هي العلوم النقلية الوضعية ، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول[٢] .

ويدقق العلامة يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت : ٤٦٣هـ)

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٨٠ـ٥٨١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٤٠٠ـ٤٠١ .

في حديثه عن العلم فيقول : . . . فحدُّ الضروري مالا يمكن للعالم أن يشكك فيه نفسه ، ولا يدخل فيه نفسه ، ولا يدخل فيه على نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل ، كالعلم باستحالة كون الشيء متحركاً ساكناً ، أو قائماً قاعداً ، أو مريضاً صحيحاً في حال واحدة .

ومن الضروري أيضاً وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ، كذوق الشيء يعلم به المرارة والحلاوة ضرورة إذا سلمت الجارحة من آفة ، وكرؤية الشيء يعلم بها الأوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات . . . .

وأما العلم المكتسب ، فهو ماكان طريقه الاستدلال والنظر ومنه الخفي والجلي ، فما قرب من العلوم الضرورية كان أجلى ، وما بعد عنها كان أخفى[1] .



(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله : ٢/ ٣٧ .

الفصل الثاني

العلم في القرآن الكريم

أشاد القرآن الكريم بالعلم ، وركز على حملته ومكانتهم ، وبيَّن فضله وفوائده في الدنيا والآخرة .

وقد تكررت كلمة العلم في القرآن (٧٥٠) سبعمئة وخمسين مرة ، أي أكثر من (١/ ٨) : ثُمُنَ القرآن ! !

وأول الآيات التي أُنزلت على قلب رسول الله ﷺ ، فيها دلالات رائعة من حيث إنها وردت بأسلوب التحاور العلمي ، محاورة بين أمين وحي السماء (جبريل) عليه السلام ، وبين أمين وحي الأرض والسماء محمد بن عبد الله ﷺ .

وفي هذا الحوار العلمي نرى المقام العالي للعلم ولأهله ، قال الله تعالى في ذلك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] [العلق : ١ـ٥] .

أجل ، إنها صيغة الأمر والوجوب للنبي ﷺ بالقراءة والعلم والتعلم ، وباسم ربك الذي خلق ، لتتشرف التلاوة باسمه سبحانه ، ولأن القراءة

(١) للتوسع في قصة بدء الوحي ، يراجع سيرة ابن هشام : ١/ ٢٥٤ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٣٠٢ ، صحيح البخاري : ١/ ٣ ، طبقات ابن سعد : ١/ ١٩٤ .

هي التي توصل الإنسان إلى التعلم والتقصي والاهتداء إلى حقائق الدنيا والآخرة .

ثم أكد المسألة بقوله مرة ثانية : ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ أي أكرم الإنسان على سائر المخلوقات بمسألة العلم والذي من أدواته القلم : ﴿ عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ ، وفي موضع آخر ـ وهو من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ـ يقسم الله تعالى بالقلم ، ليلفت النظر إلى قيمته وأهميته ، قال الله تعالى : ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] .

﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فله الفضل سبحانه في مسألة تعليم الإنسان كل ما كان يجهل ، ثم تظهر أهمية العلم في القرآن الكريم عن طريق طرح عددٍ من الأمور المتعلقة به ، مثال ذلك : أن الذين يخشون الله سبحانه هم الذين يعلمون ، وأما الجاهلون فلا يعرفون قدر الله ولا يقدرون عظمته ، لذلك لا يخشونه ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

قال الإمام ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى :

. . . أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً ، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه ، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله منه[1] .

والذين يصلون إلى مرحلة خشية الله لهم جزاء كبير عند الله : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة : ٨] .

ولن يصل جاهل إلى مرحلة الخشية لله ، لأن بين العلم وأهله ، وبين الجهل وأهله ، فرق شاسع ، فهما لا يستويان ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر : ٩] .

أبداً لا يستوون ، لأن العالمين شهدوا مع الملائكة ومع الله بالوحدانية ، وأما غيرهم من الجاهلين فقد أشركوا مع الله آلهةً أخرى!! قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وعلّق الإمام ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

. . . استشهد سبحانه وتعالى بأولي العلم على أجل مشهود عليه ، وهو توحيده ، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثاني : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥/ ٥٨٠ـ٥٨١ .

والرابع : أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُهُ ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولي العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أجلُّ شاهدٍ ، ثم بخيار خلقه ، وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة عنه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم ، فلهم من

الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً .

فهذه عشرة أوجه في هذه الآية[1] .

ومن خلال تكريم القرآن الكريم لمسألة العلم ، نراه يقرنه بالأمور الفاضلة ، مثال ذلك : ربط العلم بالإيمان ، ليدل على المكانة المرموقة للعلم ، والتي تساوي مرتبة الإيمان ، قال تعالى :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٦٢] .

وربط القرآن الكريم العلم بالدعاء ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقرن الله تعالى بين العلم والحكمة ، ليدل على المكانة المرموقة للعلم ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وربط بين العلم والتعقل ، قال تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل : ٦٧] .

وربط بين العلم والبرهان والنور ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء : ١٧٤] .

وربط القرآن الكريم بين الدعوة إلى الله وبين العلم ، قال الله تعالى :

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٤٩-٥٠ .

وقرن الله تعالى بين العلم والخاتمة الحسنة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

وربط القرآن الكريم العلم بالأمانة ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

ويطالعنا القرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن قصص الأنبياء ـ بالتركيز على قيمة العلم من خلال أن جميع الرسل والأنبياء آتاهم الله العلم :

فشيخ الأنبياء نوح عليه السلام جادل قومه بالعلم والحجج والبراهين ، لذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام ذلك ، فما كان منهم إلا العناد والتكذيب :

﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود : ٣٢-٣٣] .

وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يحاور أباه (آزر) ويقيم عليه الحجة ، ويريد منه أن يتبعه ، لأن الجاهل هو الذي يسير وراء العالم ، وكيفما كان الحال ، وحتى لو كان الولد متعلماً والوالد جاهلاً ، قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ٤٣] .

وفي قصة يوسف عليه السلام حديث طويل حول مسألة فضل العلم :

فحينما رأى الرؤيا ، قال له والده مبشراً بالعلم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف : ٦] .

وعن طريق العلم وصل يوسف إلى الحكم ، فعلمه بتأويل المنامات

وتفسيرها هو الذي أظهر براءته من التهم ، وهو الذي أوصله إلى خزائن الدولة وقتئذٍ : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٤-٥٥] .

وأما نبي الله موسى عليه السلام ، وهو من أولي العزم عليهم الصلاة والسلام ، فقد هيأه الله تعالى عن طريق الحكمة والعلم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] .

وكذلك في قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام ، نرى حديثاً مستفيضاً عن العلم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٥-١٦] .

وفي قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ، يؤكد القرآن الكريم على أن (الذي عنده علم من الكتاب) استطاع أن يسبق العفاريت في الإتيان بعرش الملكة بلقيس : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [النمل : ٣٨-٤٠] .

وحينما امتن الله على عبده المسيح عليه السلام بالنعم والفضل العميم ، ذكر مسألة العلم : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وعندما خاطب حبيبه محمداً خاتم الرسل ﷺ ، جاء ذكر العلم في سياق الخطاب : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وعندما حدثنا القرآن الكريم عن وظائف الرسول ﷺ[1] ذكر العلم ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

كل ذلك يدل وبوضوح على أهمية ومكانة العلم ، لأن سبب تفضيل الله آدم عليه السلام على الملائكة هو ما علمه إياه ، قال تعالى وهو ينقل القصة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣] .

وعلق العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله : وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه : كيف يجعل في الأرض مَن هم أطوع له منه فقال : ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه ، وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذه الخليقة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي

---

(١) للتوسع يراجع : منهج القرآن الكريم في عرض وظائف رسول الله ﷺ ، للمؤلف : ٩٦-١٥٥ .

عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقة أهل العلم والإيمان ، من هو خير من الملائكة ، وظهر من إبليس من هو شر العالمين ، فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثاني : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

جاء في التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا! فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليقة الذي يجعله الله في الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه ، فقالوا : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم ما خصّه به من العلم ، فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ أقرّوا له بالفضل .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والأرض ، فتعرّف إليهم بصفة العلم ، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه وتعالى جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا

ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام ، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذٍ قدّمه ومكّنه ، وسلّم إليه خزائن الأرض ، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ، ومكّنه في الأرض ، فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة[1] .

وفي القرآن الكريم إشارات إلى بعض أنواع العلوم :

ففي المجال الطبي تفصيل لخلق الإنسان وتطوره ونموه ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ـ١٤] .

وفي مجال الفلك : آيات وآيات تحض العاقل على البحث والتفتيش والدراسة ، لأن في الكون أسراراً وأسراراً يجب اكتشافها ، ومن ثم تسخير ما أمكن منها للفائدة العامة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ [يونس : ٥] .

وفي مجال الجغرافيا إشارات إلى بعض الظواهر : كالجبال والسحاب والبحار ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

وفي المجال الاقتصادي إشارات واضحة ، كالحديث عن الربا ،

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٣ـ٥٤ .

والنهي عن كنز الأموال ، والنهي عن الإسراف والتبذير ، وتوثيق العقود المالية ، وتحريم التلاعب بالموازين والمكاييل وغير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة : ٣٤-٣٥] .

كل هذا غيض من فيض من الحديث المستفيض في القرآن عن مسألة العلوم وأهميتها ، وفيه الدلالات الواضحة للفت العقل البشري إلى التأمل والتدبر والتفكر في هذا الكون الفسيح : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [النحل : ١١] .

وفيه أيضاً التنبيه إلى أمر خطير جداً ، وهو التقليد الأعمى ، إذ أن التأكيد القرآني وهو يتحدث عن العلوم ينهى عن تقديس الآباء والأجداد وتقليدهم حتى لو كانوا على الخطأ ، لأن التقليد يعني تعطيل الطاقات العقلية ، وبالتالي فهو تبديد لواحدة من نعم الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠-١٧١] .

وهذا يعلمنا المنهج القرآني الرائع حيث الاعتماد على البرهان والحجة ، لا على الظن والأماني واتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] .

وأما منزلة العلماء فتأتي من خلال مكانة العلم ، بحيث عبّر القرآن الكريم عن هذه الطائفة بقوله : ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) رحمه الله تعالى في تعليقه

---

(١) للتوسع في بحث التفكر يراجع كتاب : تفكّر ساعة ، للمؤلف ١٨٥-٢٧٠ .

على هذه الآية : يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم ، ورفعة الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب ، وبها ترتفع الدرجات ، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة(١) .

وهكذا فالعلم يثمر الإيمان ، لأنه يدل على التفكر في آلاء الله ، ويوصل إلى الخشية من الله ، ويكشف عن الحقائق كلها ، قال تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤] .

وهكذا فالعلماء هم الذين يفهمون كلام الله ، فتدمع عيونهم ، وتتحرك أفئدتهم ، وتسجد جباههم على الأرض تعظيماً لله سبحانه ، فعن طريق العلم عرفوا الله وقدروه حق قدره ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء : ١٠٦-١٠٩] .

أجل ، فالعلماء مصابيح على وجه الأرض ، استمدوا ذلك من أنوار العلم ، لأن الله تعالى جعل الحياة والنور في مكان واحد هو العلم ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، ويكفي العلماء شرفاً توجيه الله تعالى الناس إليهم ، قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ١/ ٤٤١ .

الفصل الثالث

العلم في السنة النبوية

في السنة المطهرة حديث مستفيض عن مكانة العلم ، والحض والحث عليه ، وتشجيع المسلمين للانكباب على التعلم والتعليم ، سواء كان العلم يتعلق بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة ، وهناك طائفة كبيرة من الأحاديث ترفع مكانة طلاب العلم ، وتدعو إلى نشر العلم ، وتهدد وتحذر من كتمانه ، ولننقل بعض تلك الأحاديث من باب تعميم الفائدة .

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري قال : سمعت معاوية يخطب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذا الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة ، وحتى يأتي أمر الله »[1] .

وعن قيس بن كثير رحمه الله قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا الدرداء ، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ ، لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ، ما جئت لحاجة ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً : سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات

---

(١) صحيح البخاري : ٦/ ١٥٢ ، صحيح مسلم : رقمه(١٠٣٧) .

ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[١] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »[٢] .

وعن سنجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من طلب العلم كان كفارةً لما مضى »[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »[٤] .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ، وذهب واحد ، فوقفا على رسول الله ، فأما أحدهما : فرأى فرجة في الحلقة ، فجلس فيها ، وأما الآخر : فجلس خلفهم ، وأما الثالث : فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم : فأوى إلى الله عز وجل ، فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه »[٥] .

---

(١) سنن الترمذي : رقمه(٢٦٨٣) ، سنن أبي داود : رقمه(٣٦٤١) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه(٢٦٤٣) سنن ابن ماجه : رقمه(٢٢٧) .
(٣) سنن الترمذي : رقمه(٢٦٥٠) .
(٤) سنن ابن ماجه : رقمه(٤١٦٩) ، سنن الترمذي : رقمه(٢٦٨٨) .
(٥) صحيح البخاري : ١/١٤٣ ، صحيح مسلم : رقمه(٢١٧٦) ، موطأ مالك : ٢/٩٦٠ .

وعن سهل به سعد الساعدي رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « والله لأن يهدي بهداك رجل واحد خير لك من حمر النَّعَم »[1] .

وعن عمارة بن جوين قال : كنا نأتي أبا سعيد ، فيقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، إن رسول الله قال : « إن الناس لكم تَبَع ، إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً »[2] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضّر الله امرأً سمع مني شيئاً فبلّغه كما سمعه ، فرب مبلّغٍ أوعى من سامع »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به بعده ، أو ولد صالح يدعو له » .

وفي صحيح مسلم بالسند المتصل إلى أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدال على الخير له مثل أجر فاعله » .

وفي الحديث المتفق عليه أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قليل العلم خير من كثير العبادة ، وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله ، وكفى

---

(١) سنن أبي داود : رقمه(٣٦٦١) ، صحيح مسلم : رقمه(٢٤٠٦) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه(٢٦٥٢) ، سنن ابن ماجه : رقمه(٢٤٧) .
(٣) سنن الترمذي : رقمه(٢٦٥٩) .

بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه ، إنما الناس رجلان : عالم وجاهل ، فلا تمار العالم ولا تحاور الجاهل » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي » .

وفي سنن الترمذي وابن ماجه والبيهقي بالسند المتصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » . وعن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة » .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الله العباد يوم القيامة ، ثم يميز العلماء ، ثم يقول لهم : يا معشر العلماء! إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » .

ولا يظن أحد أن العلم المطلوب هو علوم الشريعة فقط! أبداً ، إنما كل علم يجلب الخير والنفع على عباد الله .

والأدلة في السيرة الطاهرة كثيرة جداً ، من ذلك أن النبي ﷺ دعا القوم إلى تعلّم اللغات الأجنبية ، فقد أورد ابن سعد أن النبي ﷺ أمر (زيد بن ثابت) أن يتعلم اللغة العبرية ، لما في ذلك من أهمية ما يريده الآخرون وما يخططون له .

وفي المجالات العسكرية : علّم الناس مسألة التمويه والتخطيط والمباغتة والاستطلاع وتقسيم الجيش ، والاتفاق على ما يسمى اليوم (كلمة السر) ، والعودة إلى غزوات الرسول ﷺ تعطي إيضاحاً أكثر .

وفي المجالات الاقتصادية : علّم رسول الله ﷺ منهجاً قويماً ، بحيث نهى عن الربا والغش والاحتكار ، وشجع على استثمار الأراضي وزراعتها والكسب الحلال واستثمار الوقت في أي عمل يدر الخيرات على الناس .

وفي مجال الصحة : علّم النبي ﷺ قواعد هامة مثل النظافة العامة ، سواءً كان ذلك متعلقاً بالشوارع أو المنازل أو الحدائق أو المساجد أو الجسد .

وفي المجالات الاجتماعية : علّم الناس ممارسة الشورى وإدلاء الأصوات والآراء ، ودعا إلى توحيد كلمة الأمة ، وبث فيها فكرة التعاون والإحسان ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة ، أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

أجل ، لقد بلغ من مكانة العلم في السنة الطاهرة ، أن ربط رسول الله بين العلم وبين أمور الخير والفضائل ، فالعلم مربوط بالخير والهداية ، قال رسول الله ﷺ : « العالم والمتعلم شريكان في الخير » .

وربط رسول الله ﷺ بين العلم وبين الدعاء لله تعالى ، روى الترمذي بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه قال : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » .

وربط النبي ﷺ بين العلم وبين الدرجات والمنازل العليا ، قال رسول الله ﷺ : « يبلغ العبد منازل الأخيار ، الدرجات العلى في الدنيا والآخرة » .

ولذلك كله نستطيع القول : إن الشريعة الإسلامية ومن خلال

الأحاديث النبوية اهتمت كثيراً بطلاب العلم ومجدت العلماء ، واعتبرت أن موت العالم الواحد يحدث شرخاً كبيراً في مسيرة الحركة للأمة ، قال رسول الله ﷺ : « ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

وأورد ابن عبد البر رحمه الله طائفة من الأحاديث النبوية التي تتحدث عن ذهاب العلماء ، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تظهر الفتن ويكثر الهرج ، قيل : وما الهرج ؟ قال : القتل القتل ، ويقبض العلم » .

ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا » .

ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يخرج من أمتي ثلاثون دجالاً كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يُقبض المال ويقبض العلم وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل القتل » .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : موت العالم ثلمة في الإسلام ، لا يسدها شيء ما اطرد الليل والنهار .

* * *

الفصل الرابع

من أساليب التعلم والتعليم في الإسلام

عاش الرسول ﷺ مع أصحابه ، كأنه واحد منهم ، فهو كما ورد في سيرته الطاهرة ، لم يتميز عنهم ، ولم يعطِ الأوامر بالهجوم على العدو ليعود إلى مكان محصّن! إنما كان يأكل معهم ، ويمشي إلى العدو أمامهم ، ويشاركهم السراء والضراء ، لذلك قال تعالى :

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقد كان يعطيهم من العلوم ما يناسب مستواهم العقلي ، فللبدوي جواب يختلف عن الحضري ، وللصحابي الذي يلازم المسجد ويسمع من النبي الشيء الكثير جواباً يختلف عن الرجل الذي لا يأتي إلى المسجد إلا قليلاً .

لكن السمة البارزة لمنهجه صلوات الله عليه التعليمي هي البساطة واليسر ، والابتعاد عن التعقيد والتصنع والتشدد ، وقد أخرج أبو داود عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في

التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ وأخبرناه بذلك ، قال : « قتلوه ، قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال »[1] .

وتحدثنا سيرته الطاهرة ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يعتمد ما يسمى اليوم (الطريقة الاستنباطية) والتي تعتمد على السؤال لاستخراج الجواب ، مثال ذلك مارواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ قال : فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال : هي النخلة » .

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدع مجالاً إلا ونبّه أو علّم أو وعظ من خلاله ، إلى درجة أنه كان إذا رأى خطأ ما أرشد إلى الصواب فوراً ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على ظهر قدمه ، فأبصره النبي ﷺ فقال : « ارجع فأحسن وضوءك ، فرجع فتوضأ ثم صلى » .

وكان ﷺ يحرص على تعليم النساء ، وكان يفرغ لهن أوقاتاً لتعليمهن أمور الفقه وما إلى ذلك ، من ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن ، وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين » .

---

(١) للتوسع في هذه المسألة ، يراجع كتاب « هلك المتنطعون » ، للمؤلف .

هذا إضافة إلى حضور النساء مع الرجال المواقف التي كان رسول الله ﷺ يدلي فيها بالمواعظ وتعليم أمور الدنيا والآخرة ، كصلاة العيدين ، وصلاة الجمعة ، والدروس العامة ، وخطبة عرفة ، وصلاة الاستسقاء ، ونحو ذلك .

لكن من أين لرسول الله ﷺ هذه الأساليب التي توصل العلوم إلى المستمعين أو القارئين ؟ إنها من القرآن الكريم ، حيث ـ كما رأينا ـ فإن القرآن الكريم ومنذ اللحظة الأولى للتنزل على رسول الله أمر بالتعلم عن طريق القراءة ، والقراءة هي وسيلة التعلم ومفتاح العلوم كلها ، فإن لم تكن هذه الوسيلة متوفرة للناس فإلى وسيلة ثانية هي المشافهة والتلقي ، بحيث يجلس التلميذ بين يدي أستاذه ليتلقى منه العلوم مشافهة ، ولعل ـ والله العالم ـ هذا هو القصد من توجيه القرآن الناس للنفير نحو العلم كما هو النفير نحو الجهاد في سبيل الله ، قال عز وجل : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ثم يأتي التوجيه القرآني إلى طلب الزيادة في العلم ، حتى لو بلغ الإنسان من الكبر عتياً! وحتى لو حمل الشهادات العليا ، فالإنسان يبقى في حالة جهل دائم ، قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

زدني علماً : لأنه كلما تعلم الإنسان وبحث وغاص بين ثنيات الكتب ، وجد نفسه أمام بحرٍ لا ساحل له ولا قرار ، ورضي الله عن الإمام الشافعي عندما قال :

كلما أدَّبني الدهر أراني نقص عقلي!
أو أراني ازددتُ علماً زادني علماً بجهلي!!

والتعلم لا حرج فيه ، حتى لو كان من واحدٍ أقل مستوىً أو شهادةً

أو . . . !! لأن القرآن الكريم أورد طائفةً من الأمثلة تدل على ذلك ، كقصة موسى عليه السلام وهو واحدٌ من أولي العزم يطلب العلم من عبد من عباد الله وهو الخضر عليه السلام ، والخليل إبراهيم عليه السلام ـ وهو يحاور والده ـ يؤكد هذه المسألة كما حكى الله على لسانه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] ، وسليمان عليه السلام وهو النبي الملك تعلَّم من طائر صغير هو الهدهد ، دون أي حرج ، قال تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢١-٢٣] . ووسائل تحصيل العلوم كثيرة ، ففي كل زمان ومكان هناك وسائل تختلف عن الوسائل التي كانت في الماضي ، والقرآن الكريم ركز على السمع والبصر والعقل كحواس أساسية للتعلم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

وذلك لأن العلم يأتي بالتعلم ، لذلك فمن لم يستخدم هذه الحواس للتعلّم ، فليسمع ما وصفه الله به : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ومن الوسائل التعليمية المهمة ، والتي ركزت عليها الشريعة الإسلامية السؤال ، وهو أمر حسن ومطلوب ، حيث يرجع الجاهل إلى العالم وأهل الخبرة ، لأن الحلّ يكمن عند هؤلاء ، قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

وأهل الخبرة هم الذين يجيبون عن الأسئلة والاستفسارات ، وهم

الذين يحلُّون إشكاليات العلوم ، لذلك جاء الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يأخذ برأيهم ويسألهم : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر : ١٤] .

وإذا عادت الأمة إلى الخبراء وأصحاب الاختصاص وأهل الذكر كان ذلك عنوان حضارتها ورقيها وازدهارها ، وإلا كانت الفتن والمشاكل ، وما إلى هنالك ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمٌ ، اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً ، فَسُئلوا ، فأفتوا بغير علمٍ ، فضلُّوا وأضلُّوا » .

لكن لم هذا التشديد في السؤال لأهل الخبرة وأهل الذكر فقط ؟! .

لأن الفتوى التي تصدر عن جاهل ما قد تؤدي إلى أمورٍ لا تُرضي الله أبداً، وبالتالي قد تؤدي إلى إعدام شخص بريء ، أو رجمه، أو . . . ؟! .

من هنا فقد قام العلماء بضبط مسألة السؤال والجواب ، وحددوا بعض الآداب التي يجب أن يتحلى بها السائل والمفتي ، من ذلك مثلاً :

أن لا يكون السؤال في مسائل الفضول أو الفراغ أو المعضلات والأغلوطات وما إلى هنالك ، بل يجب أن يكون السؤال في الأمور التي تفيد السائل وتفيد الآخرين ، وقد وقع أمثلة ذلك . . جاء رجل إلى إمام دار الهجرة ـ الإمام مالك ـ رضي الله عنه وسأله : لو افترضنا أن رجلاً داس بقدمه على دجاجة ميتة فأُخرجت منها بيضة ، فأفقست البيضة عنده فرخاً . . أيأكله ؟

فأجابه الإمام مالك : سَلْ عما يكون ، ودع مالا يكون!![1] .

ونقل القاضي عياض رحمه الله تعالى أن : زياد بن عبد الرحمن

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ١/ ١٩١ .

القرطبي تلميذ الإمام مالك أتاه كتابٌ من بعض الملوك ، فلما قرأه ، كتب على قفاه كلاماً ثم أعطاه حامل الرسالة ، فسأله الجالسون عن ذلك ، فقال : لقد كتب في الكتاب يسألني : هل كفتا ميزان الأعمال يوم القيامة من ذهبٍ أو ورقٍ ـ فضة ـ فكتب إليه : حدثنا مالك ، عن ابن شهاب الأزهري قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

وما أكثر الذين يسألون أسئلة لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تضرُّ ولا تنفع ؟ من ذلك : الوحي الذي نزل على رسول الله كيف كان ؟ إنه أمانة العرض حملها جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ، ثم : كيف حملها جبريل ؟ وعلى أي صورة رآه النبي ؟ وأين الجنة والنار ؟ ومتى الساعة ؟ ومتى يحكم المسيح ؟ ومن أفضل : عائشة أم فاطمة ؟ وكيف مات عم النبي أبو طالب ؟ وأبوا النبي ﷺ كانا على أي دين ؟ ومتى خروج المهدي ؟ و . . . . !!!

ولعل هذا النهي وارد في سياق قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة : ١٠١] .

وفي ظلال حديث رسول الله ﷺ ، الذي قال فيه : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً من سأل عن شيءٍ لم يكن حراماً ، فحُرّم من أجل مسألته » .

لذلك فلا بد من حسن السؤال . . والسماع بدقة للآخر ، لأن الفائدة تعمُّ لأهله وللآخرين ، وفي القرآن تعاليم واضحة في هذا الصدد ؛ مثال ذلك : قصة البقرة مع بني إسرائيل ، حيث جاء الأمر الإلٰهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ترتيب المدارك : ٢/ ٣٧ .

يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة : ٦٧] . هكذا دون تحديد للمواصفات ، لكن اليهود هم المعاندون الذين لا يعرفون إلا المراوغة واللف والدوران ، والتعجيز. . . !!

ففتحوا ملف التساؤلات : ماهي ؟ مالونها ؟ لقد تشابهت الأمور علينا!! وهكذا شددوا فشدَّد الله عليهم ، قال تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة : ٦٧-٧١] .

أما إذا سُئل الإنسان فلم يجد السائلُ عنده جواباً، فليس عيباً أن يقول: لا أدري!! لأن الإنسان مهما تعلم فستبقى هناك أمورٌ كثيرةٌ تنقصه ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

والملائكة الكرام كما أكد القرآن أنهم اعترفوا بأنهم جاهلون في مسألة ما ، قال تعالى :

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣] .

بل وحتى الرسول الأعظم صلوات الله عليه علمه القرآن أن يعلن عدم معرفته لبعض الأمور ، قال تعالى : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ورضي الله عن الإمام علي عندما قال: من أخطأ قول (لا أدري) أُصيبَتْ مقاتله!

ورضي الله عن الإمام مالك، حينما جاءه وفدٌ من كبار علماء المغرب، فسألوه عن أربعين مسألةً، فقال في ست وثلاثين منها: لا أدري!!

وقال في ذلك: إن الملائكة المقربين لم تستحِ حين قالت: ﴿لا عِلْمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا﴾.

ورضي الله عن عبد الله بن مسعود عندما قال: يا أيها الناس؛ من سُئل عن علمٍ يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم، فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن تقول لما تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وعن عقبة بن مسلم قال: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً، فكثير ما كان يُسأل فيقول: لا أدري، ثم يلتفت إليَّ فيقول: تدري ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم!!.

* * *

والشريعة الإسلامية ركزت على الابتعاد عن الخرافة والشعوذة، وعلى اتخاذ المنهج الاستدلالي الاستقرائي العلمي، كذلك فقد شنت الشريعة حرباً شعواء على اتباع الهوى وتقليد الآباء والأجداد.

لذلك فلا يعتمد على قضايا الظن خاصةً في أمور العقيدة، بل لابد من اليقين العلمي، قال الله تعالى وهو يحدد الخط الهادف الصحيح: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقال تعالى وهو يدعو الناس إلى إسقاط آلهة الهوى ، وإلى العودة إلى الإله الواحد سبحانه وتعالى :

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقال الله تعالى في خطابه لنبيه داود عليه السلام :

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال تعالى في خطابه لنبيه محمد ﷺ :

﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص : ٥٠] .

وأما في مجال رفض التبعية للآباء والأجداد دون إسقاط ذلك على حقائق العلم ، فالإسلام أراد للإنسان أن يفكر هو ، لا أن يفكر بعقول الآخرين ويلغي تفكيره ! !

لأن من كان قبلنا فكروا لوقتهم وزمانهم ، فأخطؤوا تارةً ، وأصابوا أخرى ، فلماذا لا نقوم بذات الدور : أن نفكر لزماننا ونجرّب ، لأن الماضي ليس معصوماً أبداً .

وهذه هي مشكلة كل الذين وقفوا في وجه رسالات الله ، قال عز وجل :

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠] .

هذه هي حجّتهم في تقديس الماضي ، وإطلاق صفة العصمة على التراث ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ـ٢٤] .

وشنَّ القرآن الكريم والسنة الطاهرة حملة قوية على التبعية للأغنياء والسادة والكبراء ، لأن ذلك تعطيل لموهبة العقل ، وسير في الظلام ، قال تعالى وهو يرسم مشهداً من الآخرة :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ـ٦٨] .

وفي المقابل فتح الإسلام باب التأمل والنظر والتفكر في النفس والكون الفسيح ، ليتكون لدى الإنسان عقلية علمية يقينية ، تعتمد على الإدراك والحقائق ، وما أكثر آيات القرآن في هذا المجال[1] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾

[الأعراف : ١٨٥]

وكل شيء خاضع للمناقشة والحوار ، ولا يحق لأحدٍ أن يلغي الحوار ، حتى في أدق الأمور وأكثرها حساسية ، ففي مجال التوحيد فتح باب الحوار وذلك كي لا يكون الاعتقاد ناتجاً عن وراثة أو خرافة ، إنما لابدَّ من الوصول إلى توحيد الله عن طريق القناعة : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

---

(١) للتوسع يراجع : تفكر ساعة (حقيقة التفكر في القرآن والسنة) ، للمؤلف .

وهاهي البراهين الحسية أمامكم : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] .

وهاهي البراهين التاريخية : ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وهاهي البراهين السمعية : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وهاهي البراهين النظرية :

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

أجل : هذه بعض أساليب العلم والتعلم ، والتي دعا إليها الإسلام ، وهناك الكثير في هذا المجال ، لكن أين المستمسكون بذلك ! !

* * *

الفصل الخامس

انكباب المسلمين على تعلم العلوم ونقلها للآخرين

لكثرة ما سمع الصحابة الكرام الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض على العلم والتعلم ، لدرجة تفضيل العلم على العبادة .

لذلك كله انكبَّ المسلمون الأوائل على حمل أمانة نشر العلم ، بحيث حفظوا آيات القرآن في الصدور ، وحفظوا كلام رسول الله ﷺ في الصدور والسطور ، ووصل بهم الحال إلى درجة أن الواحد منهم كان إذا غاب عن مجلس العلم النبوي لعذرٍ ما ، هرع إلى صاحبه الذي شرفه الله بحضور ذلك المجلس وسأله : ماذا حفظتم اليوم من كتاب الله ومن سنة رسول الله ؟ وهكذا حتى النساء كانت الواحدة منهن إذا عاد زوجها إلى البيت ، تفتح له الباب وتسأله : ماذا حفظتم اليوم من رسول الله ﷺ ؟! .

روى البخاري أن عمر رضي الله عنه قال : كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلته جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .

وظل ذلك الاهتمام بالعلم طيلة فترة حياة رسول الله ﷺ .

حتى إذا ما تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، انشغل المسلمون بالفتوحات وحروب الردة وتوطيد أركان الدولة الإسلامية ،

لكن ذلك لم يكن ليشغلهم عن مسألة العلم ، ومن هنا نفهم ماذا يعني جمع القرآن من الصدور ليدوَّن في السطور ويجمع تحت إشراف كاتب الوحي (زيد بن ثابت) رضي الله عنه ، وضمن عمليات مضبوطة ودقيقة ، وبالتالي بالاشتراك مع أكابر الصحابة وعلى رأسهم الخليفة رضي الله عنهم جميعاً[1] .

ولما آل الأمر إلى الفاروق عمر رضي الله عنه ، اتسعت دائرة الفتوحات ، واضطر المسلمون إلى أسلمة العلوم وضبطها بالمنهج الإسلامي ، بحيث ظهر علم الهندسة والاقتصاد والإدارة والمحاسبة والرقابة والتفتيش والأمن ، لكن بما يناسب تلكم المرحلة .

وهكذا أحدث في عهده ديوان المال ، وهو أول من وضع الديوان في الإسلام ، ورفض رضي الله عنه فكرة تقسيم أراضي الفتوحات على الجند ، وبرر ذلك بهدف استفادة الأجيال القادمة من ذلك ، ووزع بعض الأراضي على المستحقين ، والتفت إلى جانب مهم ، وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، بحيث يأخذ كل واحدٍ اختصاصه ، وقد ورد في كتب السير والتاريخ قوله : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيَّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ! !

وبلغت الدقة في عهده أن أمر بكتابة التاريخ ، لتنضبط أمور الدولة والشعب انضباطاً دقيقاً ، قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : جمع عمر بن الخطاب المهاجرين والأنصار ، فقال : متى نكتب التاريخ ؟

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : منذ خرج النبي ﷺ من أرض

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع : البيان في علوم القرآن ، للمؤلف : ١/ ٦٧ـ٨٣ .

الشرك ، فكتب إلى عمر بذلك ، ووافق عمر رضي الله عنه .

وأما في مجالات الاستقرار والأمن فقد اهتم عمر بتفقد أحوال الرعية ، وإنشاء العسس ـ الشرطة ـ في سبيل الوصول إلى وضع أمني هادئ .

وفي مجالات الهندسة والعمران : اهتم عمر رضي الله عنه بالتخطيط والعمران وشق الشوارع الواسعة ، واتخاذ أماكن عامة : كالحدائق والمساجد ، وكانت له نظرة بعيدة المدى يظهر ذلك في تصرفاته . يروي ابن الجوزي رحمه الله فيقول : لما أذن عمر ببناء البصرة والكوفة خطّوا الشوارع على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين ذراعاً ، والأزقة تسعة أذرع ، والقطائع ستين ذراعاً ، وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وذلك بأمر عمر رضي الله عنه .

وأرسل إلى عامله على مصر ـ عمرو بن العاص ـ رسالةً قال له فيها : ياعمرو! إن الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهي كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوةً لهم ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة .

ولما آل الأمر إلى العهد الأموي ثم العباسي ، تطورت مسألة الاهتمام بالعلم بما يناسب المرحلة ، ومن الأمثلة على ذلك :

العمل الكبير الذي قام به (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله ، وهو تدوين السنة الشريفة ، بحيث أرسل إلى جميع الولاة أن اجمعوا من كبار العلماء ما يحفظون من أحاديث .

ولعل أهم ناحيتين في مجال الاهتمام بالعلم ينحصران في :

أولاً ـ تشجيع القائمين على الأمر للعلم وحملته :

وهذا أدى إلى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ، وعلى ضوء أسباب النزول وأسباب ورود الحديث ، لذلك دوَّن (وهب بن منبه) (ت : ١١٠هـ) كتاباً في المغازي ، ودوَّن (عروة بن الزبير) (ت : ٩٤هـ) كتاباً في السيرة النبوية .

وشجع الخلفاء والأدباء والعلماء على عقد حلقات العلم في كل مكان ، وزادوا في الأعطيات للمبدعين والعلماء ، وأظهروا احتراماً لا مثيل له للعلماء ، وعقدت المناظرات بين العلماء وأمام الناس ، كمناظرة سيبويه والكسائي ، ومناظرة الأصمعي والكسائي .

وهذا النشاط في التدوين والتعلم والتعليم يعود سببه إلى الاستقرار والطمأنينة اللذين سادا في بداية القرن الثاني للهجرة ، وانفتاح المسلمين على حضارات الآخرين كالفرس وغيرهم .

ولعل الفضل الأكبر يعود إلى اهتمام الخلفاء بالعلم ، فقد أمروا بتأسيس المدارس والمكتبات .

يروي الإمام أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله فيقول : ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم ، إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين (ت : ١٩٨هـ) ، والمأمون (ت : ٢١٨هـ) لسماع الموطأ على مالك رحمه الله[1] .

وكان الخلفاء يجلسون في مجالس العلماء والفقهاء ، ليستمعوا إلى مشاكل الشعب من خلال حركة العلم وما إلى هنالك .

ويعتبر العلماء المحققون عصر المأمون هو العصر الذهبي الناشط

---

(١) للتوسع يراجع : تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي : ٢٩٤ .

الواعي للعلوم ، وذلك بسبب اهتمام المأمون بذاته بالعلوم ، فقد كان شديد الحرص على التعلم والتعليم ، وهكذا انتشرت حركة التدوين والترجمة والتأليف ، وصار الأمر على حدِّ تعبير ابن خلدون : فكثرت التآليف العلمية ، والدواوين ، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار .

وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد ، وسائر الأمور المكتبية[1] . وفتح المأمون باب العلم على مصراعيه ، فظهر الاهتمام بكل نواحي العلم، كالطب والرياضيات والهندسة والفلك.

وأرسل البعثات إلى سائر البلاد ليحصلوا على كتب نافعة ، و . . .

أما في قرطبة ، فقد أصبحت في تلكم الفترة مركزاً عظيماً من مراكز العلم والمعرفة ، حيث المدارس التخصصيّة ، والمكاتب الضخمة التي أصبحت مركزاً كبيراً لجمع المراجع والمصادر .

وأما الفاطميون في مصر فقد اهتموا بالعلم ، وشيدوا إلى جانب الأزهر أماكن تستقبل الطلبة .

وفيها مساكن للإقامة ، وأماكن للمطالعة ، وأجرى الفاطميون الأرزاق على طلاب العلم .

وهذا كان حال الأيوبيين وغيرهم .

أما أهم أماكن العلم والتعليم ، فبالنسبة للأطفال والناشئة فقد كان لهم حلقات خاصة بهم ، وكان لهم مستويات تناسب أوضاع عقولهم ، وبالنسبة للكبار لهم حلقاتهم ومجالس العلم التي تناسبهم ، وكانت أهم أماكن رواد العلم هي :

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٣٨٢ .

١ـ **المساجد** : وأقدمها وأهمها المسجد النبوي ، حيث كان في العهد الأول هو المركز للعلوم كلها ، وفيه تعقد مجالس العلم وتعقد حلقاته ، وحافظ على ذلك حتى العهود المتأخرة ، فذاك الإمام مالك رحمه الله تعالى يحدث الناس بالأحاديث والفقه في مسجد رسول الله ، وذاك الحسن البصري يلتف الناس حوله في المسجد النبوي ، وذلك الخطيب البغدادي يدرس الناس العلوم في المسجد النبوي .

وفي مصر كان الشافعي رحمه الله يدرس في مسجد عمرو بن العاص ، وفي تونس أخذ جامع الزيتونة المركز المرموق في نشر أنواع العلوم ، وظهرت شخصيات كبيرة في هذا المجال ، أمثال أبي البقاء عبد الرحمن بن زياد المعافري (ت : ١٦١هـ) ، وأبي سعيد سحنون التنوخي (ت : ٢٤٠هـ) ، وأصبحت الحالة العلمية فيه على حسب ما وصفه الحشائشي : كان ـ جامع الزيتونة ـ مستبحراً بالعلوم على اختلاف أنواعها ، عقلية ونقلية ، مقاصد ووسائل ، حتى كان يقال إن حذاء كل سارية من غالب سواريه مدرساً ، وفي خزائنه ما ينيف على المئتين ألف مجلد!![1] .

أما في المغرب فقد أصبح جامع القرويين منارة لطلاب العلم ، يأتيه الناس من كل حدبٍ وصوب ، حتى كثير من المستشرقين (كالقسيس غربرت دورياق) .

وأما جامع الأزهر : فقد بناه الفاطميون واهتموا بنشر العلم كثيراً ، يقول الإمام المقريزي : . . . وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة ، سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس ، الخليفة العزيز بالله ، في صلة رزق

---

(١) تاريخ جامع الزيتونة : ٣٦ـ٣٧ .

جماعة من الفقهاء ، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد من الرزق الغاض ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجامع الجامع الأزهر[1] .

وأصبح هذا المسجد يشبه الجامعة اليوم ، حيث تدرس فيه جميع العلوم ، من فقه وحديث وتلاوة قرآن وتفسيره ، ونحو وبلاغة وصرف ، ومجالس الذكر والوعظ . . . .

٢ـ المدارس : أسهمت الدولة إلى جانب الأثرياء وأهل الخير ببناء مدارس إلى جانب المساجد ، وذلك بهدف استقبال أكبر عددٍ ممكن من طلاب العلم ، وتكفلوا بالإنفاق الكامل عليهم .

ففي بغداد انتشرت هذه المدارس ، وأوقف لها وقف خيري ، وكان أشهرها النظامية ، وفي قرطبة كثرت المدارس وتوزعت ، وأقبل الطلاب عليها من كل مكان ، وكان أشهرها مدرسة قرطبة ، والتي حوت في داخلها مكتبة فخمة ، بلغ عدد كتبها قرابة (٦٠٠) ألف مجلد ، وكانت تدرس فيها الشعر والنحو والتاريخ وعلم الهيئة والكيمياء والطب و . . .[2] .

٣ـ المكتبات : وأشهرها بيت الحكمة والتي أنشأها هارون الرشيد ، والمكتبة الحيدرية بالنجف والتي أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي .

ثانياً : أثر الترجمة ودورها في انتشار العلوم :

تعود بداية الترجمة إلى (خالد بن يزيد بن معاوية) (ت : ٨٥هـ) والذي أمر بنقل الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية ، لكن الترجمة في عهده اقتصرت على علوم الطب والكيمياء .

---

(١) الخطط المقريزية : ٢٧٣ .

(٢) للتوسع يراجع : الخطط المقريزية : ٢/ ٤٠٠ ، رحلة ابن بطوطة : ٢٠ـ٧٠ .

وقد انتشرت الترجمة في عهد المأمون ، وذلك بسبب أنه كان مولعاً بكتب الفلاسفة القدماء ، وشجع حركة الترجمة ، فظهر بعض المترجمين الكبار ، أمثال (إسحاق بن حنين) ، والمشكلة أن المأمون لم يحصر الترجمة في علوم الطب ونحوها ، إنما شجع على ترجمة الأمور الغيبية والإلٰهيات ، وكان لذلك دور سلبي في التأثير على العقائد ! !

من هنا نقول : إن للترجمة بعض الإيجابيات كالاطلاع على بعض علوم الآخرين ، لكن لها سلبيات كثيرة ، كاختلاط العلوم والعقائد بفلاسفة لا دين لهم ، لذلك ظهرت مسألة خلق القرآن . وما جرَّ ذلك من ويلات ومشاكل على كبار علماء المسلمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره[(١)] .

لكن هل اكتفى المسلمون بترجمة العلوم فقط ؟ !

أبداً ، فقد ترجموا وأبدعوا وطوروا وهذبوا وابتدعوا طريقة في البحث العلمي القائم على التجربة لم تعرفها الدنيا حتى القرن العشرين ! !

وأهم مجالات العلوم التي أبدع فيها المسلمون :

ـ الطب : حيث ألفوا فيه الكتب الكثيرة ، وقاموا بالعمليات الجراحية على المرضى في المستشفيات ، واشتهر بعضهم كالرازي (ت : ٣١١هـ) وابن رضوان (ت : ٤٥٣هـ) وابن سينا (ت : ٤٢٨هـ) ، وكتب أطباء المسلمين أخذت دورها حتى القرون المتأخرة ، ككتاب (الجدري والحصبة) وكتاب (المرشد) و (كفاية الطبيب) و (الشفا) و (القانون) و (التصريف لمن عجز عن التأليف) وغيرهم كثير .

---

(١) للتوسع يراجع : مقالات الإسلاميين للأشعري : ٢/ ١٧٧ ، الفهرست لابن النديم : ٣٥٢ . . ، البيان والتبيين للجاحظ : ١/ ٣٢٨ .

ـ **وفي الرياضيات** : نقل المسلمون الأرقام الهندية (١ ، ٢ ، ٣) ، واستعملوا الكسور ، وكتبوا في ذلك الكتب ، واشتهر منهم (الخوارزمي) مؤسس علم الجبر ، والذي كتب كتاب (الطرح) و (حساب الجبر والمقابلة) ، ودُرّست كتبه في كل أنحاء العالم دهوراً ، وكذلك برع (ابن الهيثم) في علم المساحة ، وكتب كتابه (مجموع الرسائل). . .

ـ **وفي علم الفلك** : أجروا البحوث القيمة ، ورصدوا النجوم والأفلاك ، وبنوا المراصد ، وكتبوا في ذلك واشتهر منهم (محمد بن موسى بن شاكر) و (عبد الرحمن الصوفي) و (ابن الهيثم) وغيرهم .

ـ **وفي علم الكيمياء** : اكتشف المسلمون التقطير ، وأجروا عمليات الترشيح والتبخر ، وحضروا بعض المركبات كالنيزيك ، واشتهر منهم (جابر بن حبان) و (مسلمة المجريطي) .

ـ **وفي علم الجغرافيا** : درسوا الظاهر وسجلوا المشاهدات ، واهتموا بالرحلات ، وكتبوا كتباً قيمة في ذلك : كخطط المقريزي ، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ، ورحلة ابن بطوطة .

. . . كل هذه العلوم كان لها الدور الكبير في بناء الحضارة الإنسانية ، خاصةً الحضارة الغربية ، حيث انتقلت العلوم الإسلامية إليها عن طريق العرب المسلمين في الأندلس ، وعن طريق الحملات الصليبية[١] .

* * *

---

(١) للتوسع يراجع : الغزو الصليبي للدكتور عبد الحليم محمود : ١٧٤ ، لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان : ٥٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٣/ ٢٠٠ ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ١٤٨ ، شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة (زيغريد هونكه) : ١٤٣. . . .



الباب الثاني

أكذوبة الصراع بين العلم والدين!!

الفصل الأول

منشأ تهمة الصراع بين العلم والدين!!

في العصور الوسطى أصبح للكنيسة سلطة مطلقة لا يحق لأحد مخالفتها ، وتدخلّت في كل الأمور حتى مجالات المطبوعات ، قال الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : (وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجمع المقدس ، بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومئ إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية) [1] ، والتبرير لذلك التدخل : أن الكتاب المقدس فيه كل ما يطلبه الإنسان من العلوم!!

(إن أساس كل علم هو الكتاب المقدس ، وتقاليد الكنيسة ، وإن الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط ، بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون ، فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه ، فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها ، وتاريخ الأمم مما يجب تسليمه مهما عارض العقل ، أو خالف شاهد الحس ، فعلى الناس أن

---

(١) الإسلام والنصرانية : مع العلم والمدنية : ٣٥ .

يؤمنوا به أولاً ، ثم يجتهدوا ثانياً في حمل أنفسهم على فهمه ، أي على تسليمه أيضاً كما ترى .

وقال بعض مجتهديهم : إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس!!)[1] .

وقد سلك رجالات الدين آنذاك سلوكاً غير لائق بهم إلى درجة انتشار الشذوذ الجنسي بينهم ، وانتشار الرقص العاري و. . . ، نقل (ول ديورانت) عن القديسة (كرين السينائية) قولها : إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة ، أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ـ سواء كانوا صغاراً في السن أو كباراً ـ لم تر إلا شراً ورذيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة ، إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، تخلو عن رعاية الأرواح ، اتخذوا بطونهم إلهاً لهم ، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة ، حيث يتمرغون في الأقذار ، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور[2] .

أما موقف العهدين : القديم والجديد من مسألة العلم : فالمتصفح لها يرى نفسه أمام قصص وعظية ، تدعوا إلى ترك الدنيا والانقطاع إلى الآخرة : ورد في الإصحاح السادس : لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ، وبما تشربون ، ولا لأجسامكم بما تلبسون ، . . . ، فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه[3] .

---

(١) هذا القول نقله الشيخ محمد عبده عن واحد من كبار القساوسة (تيرتورليان) : ٢٧ـ٢٨ .

(٢) قصة الحضارة : ٢١/ ٨٥ .

(٣) إنجيل(متى) : ٢٤ .

وفي العهدين ترى الأمور الخارقة من كرامات ونحوه ، وبالمقابل : لم يتطرق إلى مسألة التأمل والتفكر والتدبر ، بل على المتبع التسليم المطلق دون مناقشة!!

وترى أموراً تاريخية بروايات مناقضة لا يتحملها العقل ، وبالتالي تجد فيه تناقضات مع الكشوفات العلمية ، من ذلك موقفهم من التخدير أثناء الولادة ، كما ورد في سفر التكوين : وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً[١] .

كذلك ورد فيه كثير من الأمور التي تخالف العلم ، كفكرة أن (أورشليم) تقع في مركز الأرض ، وأن كل ماعداها من بقع العالم يقع على ضفاف المدينة المقدسة ، وغيرها .

وفي العهد الجديد رفض لفكرة بشر يقطنون الجهة المقابلة من الأرض ، كل هذا جعل الطبيب (بطرس ألبانو) يعذّب في محكمة التفتيش حتى الموت ، وهكذا مع الفلكي (شيكودا سكولي) حيث أحرق حياً في فلورنسا! وهكذا مع(جاليلو) حيث اتهم بالكفر والإلحاد!!

إذاً : لهذا كله نشأ العداء بين العلم والكنيسة ، وليس للإسلام في ذلك أي دخل أبداً!!!

* * *

---

(١) سفر التكوين : الإصحاح الثالث ١٦/٣ .

الفصل الثاني

حقيقة الصراع بين الكنيسة والعلم!!

تسلطت الكنيسة على مجريات الأحداث تسلّطاً لا مثيل له ، حتى أن(البابا) وصل إلى مرحلة الطاعة المطلقة ، والدليل على ذلك ما أعلنه البابا(أنسنت الثالث) : إن الخادم ـ البابا ـ الذي أقامه الله على شعبه إنما هو نائب المسيح ، وخليفة بطرس ، فهو قائم بين الله ، وبين عباده ، دون الرب وفوق البشر ، وهو يحكم الجميع ، ولكن لا يحكمه أحد!!![1] .

وفي عام(١٠٧٦م) صدر أمر من البابا بحرمان إمبراطور إنجلترا (هنري الرابع) من حكم البلاد ، فلم يعد لذا الملك قيمة ولا وزن ، لهذا اضطر للسفر إلى مقر البابا (بروما) ووقف مستأذناً على باب قلعة(كانوسا) في شمال إيطاليا بالقرب من البابا(بارما) حيث كان البابا نازلاً وهو في طريقه إلى(ألمانيا) والتمس المثول بين يديه ثلاثة أيام متوالية ، وهو عاري الرأس ، حافي الأقدام ، لابساً لباساً من الوبر ، وأخيراً أذن البابا له بالمثول ، وغفر له ذنبه ، ورفع عنه النقمة!![2] .

من جهة أخرى ، بسطت الكنيسة نفوذها على أمور المال ، ففرضت الضرائب ، وحددت لنفسها عُشر الأموال ، ووصل الحال على حد

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ، محمد رفعت ومحمد حسونة : ١٤٨ـ١٤٩ .

(٢) نفسه : ١٤٠ـ١٤١ .

قول(شار سنيوبوش) : كان الكهنة أعلى طبقات ، لهم وحدهم من الأملاك والوسيعة ما يقرب من ربع أرض المملكة ـ فرنسا ـ فضلاً عما كانوا يضربونه من المال على الحاصلات مما يسمونه العُشر ، ومقداره مئة وخمسة وعشرون مليوناً في السنة!!![1] .

فما هو موقف الكنيسة من الأمور العلمية ؟!

في العصور الوسطى كان مستوى التعليم في أوروبة متخلفاً إلى حد عجيب شمل التخلف كل المستويات كسوء التغذية ، والتخلف في وسائل النقل ، وانعدام الكشوفات العلمية ، وتدهور الوضع الصحي والدوائي ، وقد خضعت المدارس لسيطرة الكنيسة ، حتى الجامعات لم تستطع الخروج عن آراء الكنيسة .

أما النساء فلم يكن لهن مدارس خاصة بهن ، ولم تتعلم الراهبات إلا تلاوة صلواتهن وتعاطي صناعة التطريز وغيرها من أعمال الأديرة[2] .

والذي زاد الأمر سوءاً تدخل الكنيسة في تفسير بعض الأمور العلمية ، وبالتالي تقديس ذلك الأمر على أساس أنه وحي إلهي!!

فذاك أحد الرهبان واسمه(قوزماس إنديكو بليوستيس) يقول عن الأرض والسماء كلاماً يرفضه العقل والدين ، لكن الكنيسة تبنت آراءه واعتبرتها وحياً من الإله ، ومما قاله في هذا الصدد :

إن الأرض عبارة عن معين منبسط تحيط به أربعة بحار ، ويبلغ معين الأرض أربعمئة يوم سفراً طولاً ، ومئتي يوم عرضاً!!

وماذا عن السماء ؟ يجيب : حدود هذه البحار الأربعة الخارجية تقوم

---

(١) تاريخ التمدن الحديث : ٦٥ .

(٢) دائرة المعارف لبطرس البستاني : ٦/ ١٢٦ .

على جدران عظيمة القدر ، هائلة الحجم ، تحوي كل ذلك البناء الكبير ، وتحمل من فوقها تلك القبة السماوية ، وقد ثبتت أطرافها إلى أعلى الجدران بمادة فيها صفة الالتصاق!!

وماذا عن ظاهرة غروب الشمس ؟ يجيب : إن عند طرف الأرض الشمالي يقع جبل عظيم ، خلفه يكون مقر الشمس أثناء الليل! ثم يفلسف آراءه هذه بقدسية الدين فيقول : إنه ليس موسى والأنبياء وحدهم ، بل الملائكة والحواريون أيضاً متفقون على أن ما في مذهبه حق ، وأن الله في اليوم الآخر سوف ينزل غضبه على كل من يُسلّم به أو يتشكك فيه!!

إذاً : ماذا عن احمرار الشمس عند الغروب ؟ أجاب(دانتي) : إن ذلك بسبب جهنم! حيث إنها تقع عرض المحيط الأطلنطي ، وعلى مسافة غير معروفة من شاطىء أوروبة!![1] .

. . . وبالطبع هذه الآراء للكنيسة تخالف الحقائق العلمية تماماً .

وتدخلت الكنيسة لتفرض آراءها في أمور تختص بالبيولوجيا : فتبنّت فكرة(بطرس لومبارد) الذي أوردها في كتابه(الجمل) وهي : إنما أصبحت الحيوانات مضرة مؤذية ، لتزعج الإنسان ، وتعاقبه على رذائله ، ولتحضه على الفضيلة وتكملها في نفسه ، لقد خلقت العجماوات غير مؤذية ، فلما أن وقعت المعصية ، انقلبت مضرة أبلغ الضرر!!

وتبنت الكنيسة آراء(بارثو لوميو) في كتابه خصائص الأشياء ، منها : إن التمساح إذا عثر على الإنسان على حافة المياه فإنه يقتله ، ثم يبكي عليه ، ثم يأكله!!

---

(١) للتوسع يراجع : بين العلم والدين ، أندروديكسون وايت ، ترجمة إسماعيل مظهر ، ط١٩٣٠م دار العصور بمصر .

والتنين هو أعظم الأفاعي ، فهو عندما يطير في الجو يتحرك الهواء ، وعندما يدخل في الماء فإن البحر يهيج ويطغى!!

وتبنت فكرة نشأة بعض الحيوانات من آراء(الأنسيكلو بيذي الكبير) ، ومنها : إن النحل إنما يحدث من لحم الثور المنحل ، والخنافس من لحم الحصان ، والجراد من البغال ، والعقارب من السراطين!![1] .

. . . وبالطبع فهذه الآراء للكنسية تخالف الحقائق العلمية تماماً . . .

وفي كل المجالات حاولت الكنيسة أن تتبنى أفكاراً ، لكن في واقع الأمر كانت تخالف العلم ، لذلك فكل من أوتي نصيباً من أنوار العلم ، ووصل إلى وقائع تخالف ما تبنّته الكنيسة ، كان جزاؤه التكفير والإلحاد ، لأنه خرج عن قدسية آراء الكنيسة ، وبالتالي خرج عن آراء المسيح ، لذلك كله قامت الكنيسة بحملة تطهيرية وحشية ، وكانت محاكم التفتيش ما بين عام ١٤٨١م وعام ١٤٩٩م ، والتي يقول عنها الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : حكمت محكمة التفتيش على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمانمئة وستين بالشنق ، فشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة ، فنفذت!![2] .

أجل! خالف (غاليليو) آراء الكنيسة فقال : إن الأرض تدور حول الشمس ، فاتهمته الكنيسة بالكفر والإلحاد ، وسجن وعذب عذاباً شديداً ، فعاد عن رأيه وأعلن أمام البابا (أربان الثامن) قائلاً : أنا غاليليو ، وفي السبعين من عمري ، سجين جاث على ركبتي ، وبحضور

---

(١) المصدر السابق : وفي أماكن متفرقة أيضاً ، خاصة/ ٢٦٠ـ٢٩٥ .

(٢) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : ٣٦ـ٣٧ .

فخامتك ، وأمام الكتاب المقدس ، الذي ألمسه الآن بيدي أعلن أني لا أشايع ، بل ألعن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور!![1] .

وهكذا حدث مع (جيور دانو برونو) الذي تحدث عن بعض الحقائق العلمية التي تخالف رأي الكنيسة ، فكانت عقوبته السجن لمدة ستة أعوام في سجون محاكم التفتيش في روما ثم أُحرق حياً ، وذريت بقاياه الترابية مع الرياح!!

وهذا ما حدث مع (نيوتن) و (كوبرنيكوس) وغيرهم الكثير ، بحيث يشهد ذلك كله على حقيقة الصراع القائم بين الكنيسة والعلم .

* * *

لكن هذا الصراع بين الكنيسة وبين العلم والعلماء كان له نتائج ، أهمها :

١ـ ظهور حركات الإصلاح :

والتي كانت نتيجة التعسف الذي مارسته الكنيسة تجاه المتنورين والعلماء ، وكانت البدايات تعود إلى القرن السادس عشر ، حيث نادى بعض المصلحين إلى فكرة إصلاح الكنيسة ، ومن أبرز المصلحين آنئذ (يوحنارخلن) و (أرزم) و (تومس مور) ، حيث ركزوا على فكرة العودة إلى الكتاب المقدس بعيداً عن تفسيرات وشروحات رجالات الدين .

لكن هذه الدعوة السلمية للإصلاح لم يكن لها تأثير يُذكر ، فنشأت دعوة الإصلاح لكن بالقوة ، وظهر من رجالات هذه الدعوة :

---

(١) بين العلم والدين ـ مصدر سابق ـ : ٧٩ـ٨٠ .

مارثن لوثر : الذي لم تعجبه فكرة (صكوك الغفران) التي ابتدعها رجالات الكنيسة ، حيث ثمن الغفران من خطيئة الزنى = ١٥٠ دوقة ، وثمن الغفران لمن قتل ابنتين = ٨٠٠ دوقة!!

فردَّ على صكوك الغفران ، وراح يتحدث أمام المثقفين عن جرائم رجالات الكنيسة و. . . ، فأصدروا قراراً يحرمونه فيه من الحقوق الدينية والمدنية والقانونية ، فكان رد (لوثر) على ذلك بإحراق قرار الحرمان!

ونادى بوجوب العودة الفعلية إلى الكتاب المقدس ، وأنكر الرهبنة ، وأبطل مسألة وجود الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها ، وهاجم بيع صكوك الغفران ، وهاجم حق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس. . .

وبالفعل لاقت دعوته رواجاً بين الأوساط ، لأنها كانت دعوة صادقة تريد الخلاص من ظلم رجالات الكنيسة وتخلفهم ووقوفهم ضد كل أمور العلم .

ومثله نادى (الرخ زونجلي ت ١٥٣١م) و (جون كالفن) (ت : ١٥٦٤م) ، وكانت نتيجة تلك الحركات انقسام العالم المسيحي إلى فريقين :

١ـ البروتستانت : أي المحتجون ، وهم الذين أيدوا حركة الإصلاح والخروج على الكنيسة .

٢ـ الكاثوليك وعلى رأسهم البابا : وهم الموالون للكنيسة .

لكن ـ وللأسف ـ لم تكن حركة المحتجين ـ البروتستانت ـ أحسن حالاً من الكاثوليك في الأمر الذي يتعلق بالعلوم ، حيث وقفوا عند حرفية ما جاء في الكتاب المقدس ، وعذبوا كل من يخالف التعاليم ، إلى درجة أن (كالفن) أصدر قرار حرق (سرفيتوس) لأنه نادى بنبذ فكرة التثليث ، واللجوء إلى فكرة التوحيد!!

وهكذا استخفوا بمسألة العقل والعلم ، إلى درجة أن (لوثر) قال : إن العقل هو أكبر عدو للدين ! ![1] .

٢ـ فصل الدين عن الدولة :

وذلك نتيجة كثرة الشكاوي ضد الكنيسة ، وضد محاكم التفتيش ، وضد الظلم والقسوة والتعذيب ، إضافة إلى ما يعيشه رجالات الدين من ترفٍ واستغراق في اللذائذ والشهوات .

لذلك بدأ الناس يعلنون نقدهم للكنيسة ، فصدر كتاب (مقبرة التعصب) للفيلسوف الفرنسي (فولتير : ت ١٧٧٨م) والذي صدَّره بالقول : إن من يعتنق دينهُ من غير تفكير ـ شأن السواد الأعظم من الناس ـ كالثور الذي يستسلم للغير ويحمله راضياً ! !

ونادى بتقليص دور الكنيسة : كل ما هو خاص بالزواج ينبغي أن يرجع فيه إلى السلطة المدنية ، وليس على القسيس إلا أن يبارك الزوجين ! !

والذي زاد الطين بلة ، ظهور فلاسفة المادية أمثال : براتراندرسل وهيجل وإنجلز وكارل ماركس ، والذين أنكروا الغيبيات والإيمان والأديان ، وآمنوا بالعلم وحده .

ومما قاله (براتراندرسل) : إن العلم الذي يشكل المصدر الوحيد لمعرفتنا ، لا يمكن أن يفسح مجالاً للاعتقاد في وجود الله ، أو في خلود النفس ، بل إنه يعتبرها نظرية بالغة البطلان والاستحالة ! !

وهكذا بدا الصراع بين الكنيسة والعلم واضحاً وجلياً ، وكانت الضربة القوية مع ظهور فلاسفة الثورة الفرنسية (فولتير ، روسو) حيث نشروا

---

(١) للتوسع يراجع : قصة الحضارة ـ مصدر سابق ـ : ٢٤/ ٥٦ـ١٠٠ .

أفكاراً تناهض الكنيسة ، ودعوا إلى الحرية والعدل والمساواة ، وصدرت القرارات التي ألغت العشور الكنسية وصادرت أموالها ، وبدأت الأمور تخرج من يد الكنيسة ، وأصدرت الحكومة الفرنسية في عام (١٩٠٥م) قانون (فصل الدين عن الدولة) .

فالدين أمر خاص بالفرد ، وانتهى دور الكنيسة لينزوي في مهمة الوعظ فقط . . !![١] .

* * *

(١) للتوسع : تاريخ أوربة في العصر الحديث ، هـ . أ . فشر ، ترجمة أحمد هاشم ، تاريخ التمدن الحديث ـ مصدر سابق ـ ، سقوط العلمانية لأنور الجندي ، وغيرهم .

الفصل الثالث

هل الإسلام يُعارض العلم ؟!

مسألة الصراع بين الدين والعلم ـ وكما رأينا ـ نشأت في ظل النظام الكنسي ولا دخل للإسلام فيه ، فما هي حقيقة العداء بين الإسلام وبين العلم ؟

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : الدين دواء ، والعلم غذاء ، وليس الدواء بمغنٍ عن الغذاء ، وليس الغذاء بمغنٍ عن الدواء .

وما أكثر العلماء المسلمين الذين أتقنوا العلوم المعاصرة كالفلك والفلسفة والمعلوماتية ، وبالتالي فالقرآن الكريم يحض المسلم على الاطلاع والبحث في هذا الكون الفسيح ، والانتفاع بما فيه من أمور فائدة للجميع ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩٠ـ١٩١] .

والعلماء ـ حتى من غير المسلمين ـ عندما اطلعوا على حقائق الدين وقارنوا ذلك فقط مع العلم الحديث ، رأوا أن لا تعارض بينهما ، مثال ذلك ما جاء في كتاب (التربية) للفيلسوف (هربرت سبنسر) (ت : ١٩٠٣م) :

إن العلم الطبيعي لا يناقض الدين . . ، ومتى اتفق العلم والدين نَموا

نُمواً صحيحاً ، فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية أصوله في رياض العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يؤيد الدين ويشدُّ أزره ، فيكون قوياً متيناً ، فمن ذا الذي يرى منافاة الدين للعلم ؟ ألا إنما المنافي للدين هو ترك العلم ، وبما أحاط بنا من المخلوقات ، لذلك أكرر القول بأن مخالفة الدين ليست هي في دراسة العلم الطبيعي ، بل هي في تركه والانصراف عنه!

ألا إن التوجيه للعلم الطبيعي عبادة صامتة ، وتسبيح عملي .

إن العلم الطبيعي موافق للدين وهو مُقوٍّ له ومؤيد من جهات كثيرة ، إنه يُري الإنسان عالماً منظماً بحركات ثابتة جارية على نظام لا تتخطاه ، وناموس لا تتعداه ، وهذا النظام يدل على قوة وراءه ، وحكمةٍ أبدعته وسوَّته أحسن تسوية ، العلم الطبيعي يُعرِّفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ، ويُعلمنا أن النتائج تتبع المقدمات ، وأن المسببات تتلو الأسباب ، وأن الثواب والعقاب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بأسبابها ، فيوقن الطالب حينئذٍ إيقاناً تاماً مبهماً ، وإن ذلك ارتقاء في معارج الكمال والسعادة العليا ، والعلم الطبيعي يعرفنا أن لنا حداً محدوداً لا نتجاوزه في العلم ، فلا نتخطاه إلى معرفة السبب الأول ـ صانع الكائنات ـ وحقيقته ، لكنه يهدينا إلى الحدود التي نقف دونها ولا نتجاوزها ، فلا نصل إلى كنهه ومعرفة حقيقته ، إياك أن تظن أن العالم الطبيعي هو من يعرف التحليل الكيميائي ، أو يقرأ الهندسة ، وإنما نعني به ذلك العالم الذي يتخذ أسافل الحقائق سُلَّماً لأعاليها ، حتى يبلغ الحقيقة العليا ، ومن ذا سواه يعرف الهُوَّة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم ـ الذي جعل الطبيعة والحياة والعقل من مظاهر ذاته ـ وبين العقل الآدمي والفكر الإنساني ؟ إن الفرق لعظيم . . . .

بينما رأى (هكسلي) بأن العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توءمان ، إذا انفصل أحدهما عن الآخر خرَّا صريعين ، وماتا حتف أنفيهما ! !

إذاً :

لا نزاع بين العلم والدين ولا عداوة ، إنما قد يحدث نزاع بينهما إذا كانا يسيران على الظن لا على الحقائق العلمية ، وبالتالي فالنزاع يحدث بين الظنيات في الدين والظنيات في العلم والنضال . وظني الدين وظني العلم ، كلاهما ليس مبنياً على اليقين المقطوع بصحته .

والمشكلة التي توصل إلى ما يسمى نزاعاً بين العلم والقرآن الكريم هي عدم رجوع الناس إلى كتاب الله ، وعدم دراسته الدراسة الواعية الهادفة ، وإلا لو اطلعوا على الدين حقيقة ، لرأوا أنه دين الحق والعلم الحق .

لذلك فمن الواجب علينا أن نعتقد أن ليس في القرآن من الآيات القطعية الدلالة ما يتعارض مع قطعيات العلم ، وأما ما عارض من ظنيات العلم مع ظنيات الدين ، فلنا الخيار في استخدام الأولى وانشراح صدرك لذلك .

وبالتالي فلا يجوز للعالم الكوني أن يتهجم على أمور الدين ، ولا يجوز للعالم الديني أن يشن حملة قوية على علماء الكون .

ولا بد من ملاحظة في غاية الدقة ، وهي أن في العلم نظريات تطرح ، لكنها تبقى في مرحلة الظن حتى تتحول إلى حقيقة ، والقرآن الكريم لم يجعله الله كتاب علم ، وإلا فكيف يطرح على الناس في الزمن الغابر قضايا الذرة وما إلى هنالك ؟!

ولابد من الالتفات إلى إشارات القرآن الكريم ، والتي تكوّن فيما بين بعضها البعض حديثاً لا بأس به عن الأمور العلمية القطعية .

لكن قد ينكر عالم كوني مسألة أثبتها الإسلام ، كما لو قال : لا يوجد ملائكة ولا جن ولا عرش ولا كرسي ، لماذا ؟ .

يقول : بأن آلات الرصد لم تتنبأ بذلك! .

يجيب علماء الشريعة : إن عدم الوجود لا يدل على عدم الموجود ، فكم من قضايا جهلها السابقون لعدم توفر الوسائل الكافية ، استطاع المتأخرون إثباتها ؟

ومازال العلم في بداياته ، ولا ندري متى يأتي الزمان الذي يستطيع الإنسان فيه ـ عن طريق العلم ـ الوصول إلى أمثال رؤية الجن وما إلى هنالك .

لكن أي محور ركز عليه القرآن وهو يتحدث عن العلوم ؟!

إنه الأسلوب الاستدلالي النظري التأملي ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٧٧ـ٨١] .

وهل يجمع القرآن بين الدين والعلم ؟

نعم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ ﴾ [الروم : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة : ١١] .

لذلك أورد القرآن العلم مقابل الجهل ، قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩] .

ووضعه مقابل الظن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

ووضعه مقابل الهوى ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

من هنا فلا فرق بين العلم والدين في نظر الشريعة الإسلامية أبداً ، إنما الفرق ينحصر في بعض الجزئيات ، ذلك لأن العلم في الميزان الشرعي دين وعبادة وتقرب إلى الله ، وكذلك الدين فهو علم . كما قال تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ـ٥] . حتى الوحي فقد وصفه الله بالعلم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] .

ونرى استخدام المصطلحات العلمية لتدل على الله تعالى ، كما في قوله عز وجل :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧ـ٢٨] .

وبالتالي فهي التي تحمي العقيدة والشريعة ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

❊ ❊ ❊

إذاً :

من أراد أن يقول : إن بين الدين والعلم نزاعاً وتعارضاً ، فإن هذا الكلام قد قيل في القرون الوسطى ، أما اليوم فقد أثبت العلم بما تم اكتشافه من اختراعات وكشوفات ، أنه ملازم للدين الإسلامي ، ولا مجال لإلصاق التهم التي قيلت بالكنيسة ، أن يلصقها الناس اليوم بالإسلام ، وذلك لأن :

في القرآن الكريم والسنة الطاهرة حشداً كبيراً من الآيات والأحاديث التي تحض على التفكر والتأمل والبحث ، ودعوة إلى الاستفادة من كل ما خلق الله في هذا الكون ، أضف إلى ذلك مدحه للعلماء وطلاب العلم ، وتفضيلهم على سائر المخلوقات ، وحتى اليوم لم تستطع الحقائق العلمية ـ لا النظريات ـ أن تعلن أنها تفشل الإسلام لما فيه من تناقض مع الحقائق .

أما ما حدث في القرون الوسطى حيث فرض على الناس قضايا وردت في العهد القديم والجديد ، لايستطيع العقل تصديقها ، وبالتالي كذّبها العلم ، فهذا التنافر بين الدين والعلم سببه أن هناك كثيراً من التحريفات وردت في العهدين القديم والجديد ، فهل يتحمّل الإسلام أخطاءً حدثت قبل إرسال رسوله بآلاف السنين ؟!

من جانب آخر فالدولة المسيحية آنئذٍ خضعت لسلطة الكنيسة الدينية ، وكانت النتيجة تحريم كل علمٍ يخالف أمر الكنيسة أو أمر العهدين القديم والجديد ، لذلك دُفنت بعض الآراء العلمية خوف خروجها إلى الناس ، ولم تهتم الدولة بالمدارس والمكتبات ، وذلك لأنها حصرت التعلم في الأديرة التابعة للكنيسة . . .

أما في الإسلام ، فالدولة هي التي أنشأت المكتبات والمدارس

والجامعات ، وهي التي شجعت على حركة الترجمة ، وهي التي أنشأت مصانع الورق. . .

فهل نتّهم الدولة الإسلامية بما اتهمت به المسيحية ، من أنها تقف ضد العلم ؟!

وأما العلماء ، ففي عهد الكنيسة ذاقوا على أيدي الرهبان أشد أنواع التعذيب والاضطهاد ، وحرق الكثير منهم : كـَ (كبرونو) و عذب (جاليلو) وغيرهما .

بينما في دولة الإسلام كان للعلماء دور كبير ومكانة مرموقة عند العامة والسلطان ، إلى درجة أن البعض منهم ارتفع إلى درجات لا مثيل لها ، كالإمام أبي يوسف رحمه الله. . . وهكذا بالنسبة للمكتبات ، فالكنيسة حصرت الأمر كله في أروقتها ، واهتمت فقط بأمور اللاهوت ، وكانت الكتب غالية الثمن. . .

أما دولة الإسلام فهي التي شجعت على شراء الكتب ، وهي التي أنشأت المكتبات ، وهي التي أنفقت الأموال في سبيل المحافظة على الكتب .

فهل نتهم الإسلام بالتهمة ذاتها التي اتهمت بها الكنيسة ؟!

أبداً ، فمع العلماء ـ الذين نادوا يوماً ما بفصل الدين عن الدولة ـ الحق الكامل في ذلك ، نتيجة الأخطاء والانحرافات التي وقعت فيها ، ولكن ليس مع أحدٍ الحق اليوم في أن ينادي بشعار فصل الدين عن الدولة ، لأن الإسلام لا تنطبق عليه تلك القضية ، بل الشريعة الإسلامية رتبت ثلاثة أمور ترتيباً رائعاً ، وفصلت بين بعضها بحرف (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب ، وهذه الأشياء الثلاثة هي : العلم والإيمان والإخبات ، بحيث إذا علمت وصلت إلى الإيمان وبالتالي وصلت إلى إخبات القلب .

قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] .

ذلك لأن العلم الحقيقي يهدي إلى الإيمان ، لا ينازعه ولا يصارعه ولا يناقضه ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء : ١٠٦ـ١٠٩] .

لكن يجب التمييز بين علمين : فهناك علم يهدم ويخرِّب ويدمر ، وهذا ما نراه اليوم ، قاذفات للصواريخ ، قاذفات للقنابل ، قنابل جرثومية وما إلى هنالك ، كل هذه أسلحة فتاكة لم تجلب للعالم إلا الخراب والخوف وعدم الطمأنينة ، وسبب ذلك أنه علم لا يتصل بالإيمان فهو أبتر ! !

أما العلم الذي يريده الإسلام ، فهو الذي يبني ويعمر وينتج ويسعد الإنسان ، وسبب ذلك ارتباطه بالإيمان بالله سبحانه .

وهكذا فالعلم الحق هو الذي يوصل إلى الإيمان الحق ، لأن العاقل إذا نظر في هذا الكون الفسيح ، ثم نظر في نفسه ، ثم تأمل وتدبر ، وفكَّر و. . . ، علم يقيناً بوجود ربٍّ خالقٍ عظيمٍ لهذا الكون ، فخشع عقله وقلبه أمام حضرة الله تعالى ، وانعكس ذلك الإيمان على كل جوارحه ، وبالتالي أصبح إنسان الله ، وهذه هي حقيقة الإيمان ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ولا يمكن لمتعلم علماً حقيقياً إلا أن يتسلل الإيمان إلى قلبه ، ولا يمكن لمؤمن بالله إلا أن يُقبل على تعلم العلوم المفيدة ، لأنه لا إيمان بلا علم ، ولا علم بلا إيمان .

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

تضحيات في سبيل العلم

الفصل الأول

الزمن وقيمته عند العلماء

إن العلماء البارزين ـ وفي أي مجال ـ لم يستطيعوا الوصول إلى ما حصَّلوه من علوم ، سواءً في الدراسة أو التدريس ، أو بالقراءة والكتابة والتأليف ، والتحقيق ، بكثرة لذات ومتع ، أو باستسلام إلى الراحة والنوم ، أو ما إلى هنالك .

إنما كان الأمر الأول هو عدم تضييع لحظة واحدة من أعمارهم ، وذلك لأن الزمن نعمة كبيرة ، خاصة لطلبة العلم ، فإذا فرط الإنسان في الزمن فرط في عمره ، وما العمر إلا مجموعة ساعات وأيام ، والعاقل هو الذي يستغل ذلك كله لتحقيق الخير والنفع ، له وللآخرين ، والقرآن الكريم أشار إلى نعمة الزمن ، فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ـ٣٤] .

لذلك كله ، علمنا القرآن الكريم ماذا سيحدث مع الكافرين ، الذين أعطاهم الله فرصة التوصل إلى الإيمان به ، لكنهم أضاعوا أعمارهم وراء سراب التمتع بالدنيا ، لكن الدنيا لا تدوم لإنسان أبداً ، إنما هي قنطرة ليعبر الناس عليها إلى دار الخلود ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا

﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر : ٣٧] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أعذر الله عز وجل إلى امرئٍ أخَّرَ عمره حتى بلغه ستين سنة »(١) .

وأقسم الله تعالى بالزمن ـ أو جزء منه ـ لما فيه من الأمور العظيمة ، ولما له من النفاسة والقيمة العالية ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١ـ٣] .

لكن ـ وللأسف ـ القلة من الناس هم الذين ينتبهون إلى قيمة الوقت ، بينما الأكثرية لاهية عابثة ، مضيِّعة لأعمارها ، علماً أن النبي ﷺ قال : « نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس : الصحةُ والفراغ »(٢) .

وعلَّق الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى على ذلك بقوله : الغيرةُ على وقت مات : وهي غيرة قاتلة ، فإن الوقت رهن التقضي ـ أي سريع الانقضاء ـ أبيّ الجانب ، بطيء الرجوع ، والوقت عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد ، وعند المريد ، هو وقت الإقبال على الله ، والجمعيَّة عليه والعكوف عليه بالقلب كله ، والوقت أعزُّ شيءٍ عليه ، يغارُ عليه أن ينقضي دون ذلك! فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألبتة ، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقتٌ فلا سبيل له إلى تداركه .

ومعنى أنها غير قاتلة ، أي أن أثرها يشبه القتل ، لأن حسرة الفَوْت قاتلة ، ولا سيما إذا علم المتحسِّرُ أنه لا سبيل له إلى الاستدراك .

وأيضاً فالغيرة على التفويت تفويتٌ آخر ، كما يقال : الاشتغال بالندم

---

(١) صحيح البخاري : ١١/ ٢٣٨ .

(٢) صحيح البخاري : ١١/ ٢٢٩ ، سنن الترمذي : ٣/ ٢٧٧ ، سنن ابن ماجه : ٢/ ١٣٩٦ .

على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر ، ولذلك يُقال : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . فالوقت منقضٍ بذاته ، منصرم بنفسه ، فمن غفل عن نفسه تصرَّمت أوقاته ، وعَظُمَ فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع ؟! وطلب الرُّجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع! وطلب تناول الفائت ، وكيف يُردُّ الأمس في اليوم الجديد ؟! ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبا : ٥٢] .

ومُنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن مااقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه :

فيـا حسـراتٌ مـا إلـى ردِّ مثلهـا سبيلٌ ، ولو رُدَّت لهانَ التحسُّرُ!!

والواردات سريعة الزوال ، تمرُّ أسرع من السحاب ، وينقضي الوقتُ بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثرُه وحُكمُهُ ، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ، فإنه عائدٌ عليك لامحالة ، لهذا يقالُ للسعداء في الجنة : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

ويقال للأشقياء المعذبين في النار : ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[1] [غافر : ٧٥] .

والتاريخ حين سطَّر صفحات مضيئة عن العلماء المسلمين ، لخَّص لنا أن سبب وصولهم إلى هذه المراتب العالية هو الحرص على الأوقات ، واستغلال كل لحظة في سبيل العلم ، ولنضرب بعض الأمثلة :

قال القاضي إبراهيم بن الجراح رحمه الله : مرض قاضي القضاة الإمام أبو يوسف (ت : ١٨٢هـ) . فأتيت أعودُه ، فوجدته مغمىً

---

(١) بتصرف واختصار من : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : ٣/٤٨ـ٥١ .

عليه ، فلما أفاق قال لي : يا إبراهيم ، ما تقول في مسألةٍ ؟ قلتُ : في مثل هذه الحالة! ؟ قال : ولا بأس بذلك ، ندرس لعله ينجو به ناجٍ ، ثم قال لي : يا إبراهيم! أيها أفضل في رمي الجمار في الحج : أن يرميها ماشياً أو راكباً ؟ قلت : راكباً ، قال : أخطأت ، قلت : ماشياً ، قال : أخطأت ، قلت : قل فيها ، يرضى الله عنك ، قال : أما ماكان يُوقَفُ عنده للدعاء ، فالأفضل أن يرميه ماشياً ، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً ، ثم قمت من عنده ، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه ، وإذا هو قد مات ، رحمه الله رحمة واسعة[1] .

وأما حياة الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى فكان فيها العجب العجاب ، والسبب الرئيسي في ذلك هو حرصه الشديد على الوقت ، واهتمامه بكل لحظةٍ منه ، روىٰ عقيل الورّاق :

أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنىٰ الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ، وأملاه في سبع سنين ، من سنة ثلاث وثمانين ومئتين إلى سنة تسعين .

ثم قال لهم : أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قَدْرُهُ ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك!

فقال : إنا لله ، ماتت الهمم! فاختصره في نحوٍ مما اختصر التفسير ، وفرغ من تصنيفه ومن قراءته عليه يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثمئة[2] .

---

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي : ١/ ٤٨١ .

(٢) تاريخ بغداد للحافظ البغدادي : ٢/ ١٦٣ ، معجم الأدباء لياقوت الحموي : ٤٦ـ٤٨ .

وقال العلامة محمد كرد علي رحمه الله تعالى في ترجمة ابن جرير الطبري : وما أثر عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة ، روى المعافىٰ بن زكريا عن بعض الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته ، وتوفي بعد ساعةٍ أو أقل منها ، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد رحمه الله تعالى ، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه!

فقيل له : أفي هذا الحال ؟!

فقال : ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات ! ![1] .

وأما الحافظ أبو نعيم الأصفهاني (ت : ٤٣٠هـ) فيقول عنه أحمد بن مردويه : كان أبو نعيم في وقته مرحولاً إليه ، لم يكن في أُفق من الآفاق أحدٌ أحفظ منه ، ولا أسند منه ، كان حفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده ، وكل يوم نوبة واحدٍ منهم ، يقرأ ما يريده إلى قريب الظهر ، فإذا قام إلى داره ربما يقرأ عليه في الطريق جزء ، وكان لا يضجر ، لم يكن له غذاء سوى التسميع والتصنيف ! ![2] .

وأما (إمام الحرمين) (ت : ٤٧٨هـ) فله أمور غريبة ، تدلنا على أن الحياة ليست أكلاً ونوماً ، إنما العاقل من يلتفت إلى كل دقيقة منها فيوظفها في الأمور النافعة ، ففي ترجمة حياته :

إمام الحرمين ، فخر الإسلام ، إمام الأئمة على الإطلاق ، حَبْرُ الشريعة ، المجمَعُ على إمامته شرقاً وغرباً ، من لم تر العيونُ مثله ولا ترى بعده ، وكان يقول عن نفسه : أنا لا أنام ولا آكل عادة ، وإنما

---

(١) كنوز الأجداد : ١٢٣ـ١٢٤ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي : ٣/ ١٠٩٤ .

أنام إذا غلبني النوم ليلاً كان أو نهاراً ، وآكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان!!

. . وكانت لذته ولهوه ونُزهته في مذاكرة العلم ، وطلب الفائدة من أي نوعٍ كان[1] .

وأما الإمام (أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي) (ت : ٥١٣هـ) رحمه الله تعالى فكان يقول : إني لا يحلُّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة!

وأنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسّيه بالماء على الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفراً على مطالعة ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه ، وإنَّ أَجَلَّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص ، فالتكاليف كثيرة .

. . . وقال الحافظ الذهبي : لابن العقيل رحمه الله كتاباً كبيراً جداً اسمه(الفنون) ، لم يُصنف في الدنيا أكبر منه ، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة!

وقال ابن رجب رحمه الله هو ثمانمئة مجلدة!! وقال ابن الجوزي رحمه الله : لم يخلف هذا الإمام الجليل من الدنيا سوى كتبه وثياب بدنه ، وكانت بمقدار كفنه وأداء دينه!![2] .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي : ٥/ ١٨٠ .
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب : ١/ ١٥٢ .

وأما الإمام ابن الجوزي(ت : ٥٩٧هـ) رحمه الله تعالى ، فتراه وهو يرسم الخط في كيفية الانتفاع من الوقت وعدم تضييعه ، فيقول :

. . . ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه ، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة في غير قُربة ، يقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل ، كما جاء في الحديث الشريف « نية المؤمن خير من عمله »[1] ، وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات ، فنُقل عن عامر بن عبد قيس ـ أحد التابعين ـ أن رجلاً قال له : كلمني ، فقال له عامر : أمسك الشمس!!

وقد رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً! إن طال الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر ، وإن طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر! ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبئة الزاد والتهيؤ للرحيل ، فالله في مواسم العمر ، والبدارَ البدار قبل الفوات ، ونافسوا الزمان!!

. . . فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهابه بفعل الخير ، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرتُ عليهم وقعتْ وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان! فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غلبتُ قصّرت في الكلام لأتعجل الفراق .

. . . ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله ، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، وكم تمر به من آفة ومنكر ، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ، ومنهم من يقطع الزمان بحكاية الحوادث عن السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك .

---

(١) المعجم الكبير للطبراني : ٦/ ٢٢٨ ، إتحاف السادة المتقين للزبيدي : ١٠/ ١٥ .

فعلمت أن الله تعالى لم يُطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك :

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت : ٣٥] .

... واعلم أن الزمان أشرف من أن يُضيَّع منه لحظة ، فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرست له بها نخلة في الجنة » فكم يضيع الآدمي من ساعاتٍ يفوته فيه الثواب الجزيل ؟ ![١] .

وكانت نتيجة حفاظ ابن الجوزي علىٰ الوقت واغتنامه أمراً عجباً :

قال ابن رجب الحنبلي : لم يترك ابن الجوزي فناً من الفنون إلا وله فيه مصنف ، وسُئل عن عدد تآليفه ، فقال : زيادة على ثلاثمئة وأربعين مصنفاً ، منها ما هو عشرون مجلداً ، ومنها ما هو كراس واحد[٢] .

وقال ابن الوردي : لقد جُمعت الكراريس التي كتبها أبو الفرج بن الجوزي ، وحُسبت مدة عمره ، فقُسمت على المدة ، فكان ما خصَّ كل يوم منها تسعة كراريس ! ![٣] .

وأما الإمام(ابن مالك النحوي) صاحب(الألفية) الشهيرة ،(ت : ٦٧٢هـ) فمما جاء في ترجمته :

كان رحمه الله تعالى كثير المطالعة ، سريع المراجعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله ، وهذه حالة المشايخ الثقات ، العلماء الأثبات ، ولا يُرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ !

---

(١) متفرقات من كتابه : صيد الخاطر : ١/ ٢٠-٢١٠ .
(٢) ذيل طبقات الحنابلة : ١/ ٤١٢ .
(٣) تتمة المختصر في أخبار البشر : ٢/ ٢١٩ .

وحكي أنه توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق ، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه ، غفلوا عنه سويعة ، فطلبوه فلم يجدوه ، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكباً على أوراق ! ![1] .

وأما الإمام النووي(ت : ٦٧٦هـ) رحمه الله تعالى ، فيحدث تلميذه عنه فيقول : ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيع له وقتاً ، لا في ليل ولا في نهار إلا في الاشتغال حتى في الطرق ، وأنه دام على هذا ست سنين ، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق ، وكان يأكل في اليوم والليلة أكلةً ويشرب شربةً واحدةً عند السحر ، ولازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم ، والعبادة والأوراد والصيام والذكر ، والصبر على العيش الخشن في المأكل والملبس ملازمةً كلية لا مزيد عليها ، ملبسه ثوب خام ، وعمامته شبختانية صغيرة .

وكانت حياته(٤٥) سنة ، وترك من المؤلفات الكثيرة العظيمة ما قسموه على أيام حياته ، فكان لكل يوم فيه أربعة كراريس ! ![2] .

وعلى هذا المنوال سار الأئمة الأعلام ، فكان منهم ابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن عساكر والذهبي وغيرهم ، لقد فهموا ماذا يعني الوقت فانطلقوا إلى حيث الوصول إلى جنات الفردوس ، فالعاقل من استغل دقائق حياته ، والخاسر من ضيع وقته سدى ، ورحم الله الشاعر أحمد شوقي عندما قال :

دقاتُ قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانِ

أجل! لقد انكبَّ أجدادنا على العلوم : قراءةً وبحثاً وتحقيقاً ، ثم

---

(١) نفح الطيب للمقري : ٢/ ٢٢٣ .
(٢) للتوسع يراجع : تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي : ٤/ ١٣٧٢ .

تصنيفاً وتأليفاً ، وما ضيّع الواحد منهم دقيقة من حياته ، ففتح الله عليهم فتوح العارفين ، فخلدهم التاريخ ، وسينقلبون غداً أو بعد غدٍ إلى أرحم الراحمين ، ليكونوا مع النبيين والشهداء والصالحين .

أجل! لم يضيعوا أعمارهم في اللهث وراء حطام الدنيا الفانية ، إنما انتهزوا الأوقات المباركة الصافية كأوقات السحر ، وانتقوا أحسن العلوم وأنفعها للناس ، كما قال الشاعر :

وإذا طلبتَ العلم فاعلم أنه حملٌ فأبصر أي شيءٍ تحملُ
وإذا علمتَ بأنه متفاضلٌ فاشغل فؤادي بالذي هو أفضلُ

بعد ذلك رسموا الخطوط العريضة للأجيال الصاعدة ، وذلك بهدف الاستفادة من تجاربهم ، وكان مما قالوه :

. . . والعلم كالبحار المتعذّر كيلها ، والمعادن التي لا ينقطع نيلها ، فاشتغل بالمهم منه ، فإن من شغل نفسه بغير المهم ، أضر بالمهم .

. . . واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرّغه للمهم ، وأن مالك لا يغني الناس كلهم ، فخُصّ به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تطبق العامة ـ أي لا تعمهم ـ فتوخَّ بها أهل الفضل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك من ذلك .

فإن ما شغلتَ من رأيك في غير المهم إزراءٌ بالمهم ، وما صرفتَ من مالك في الباطل ، فقدته حين تريده للحق ، وما عمدت من كرامتك إلى أهل النقص ، أضرّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة ، أزرى بك في الحاجة[١] .

---

(١) للتوسع يراجع : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١٢/ ١٢٥ .

أجل! لقد بلغوا المراتب العليا عن طريق تنظيم الأوقات : للعلم والتعلم ، للقراءة والكتابة ، للاستماع والمطالعة ، للعمل النافع أياً كان .

فلم يبددوا ساعات حياتهم ، بل اغتنموا الأوقات كلها ، وابتعدوا عن مجالس اللهو ، وكرهوا الفراغ ومقتوه ، وأدركوا أن الوقت ليس كالمعادن النفيسة فقط ، بل الوقت هو الحياة!

إذا كان رأس المال عُمرك فاحترزْ عليه من الإنفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معركٌ يكـرُّ علينـا جيشُـهُ بـالعجـائـب

هكذا كانوا ، فماذا عنا اليوم ؟!

للأسف الشديد ، تكاسل الناس ومالوا إلى الراحة والرفاه ، وفضلوا الاسترخاء والنوم ولذائذ الحياة ، وسئموا التعلم والتعليم ، ووضعوا حججاً واهيةً لتقصيرهم وقلة مواكبتهم لحضارة هذا الزمان ، ولذلك نفهم تماماً لماذا آل وضعنا إلى ما نحن عليه من تخلف وجهل وفقر وأمية و . . !!

ترى الكثر من شبابنا يمضون أوقاتهم في اللهو والتسلية ، ويطلقون شعارات لا حقيقة لها ، وهي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن أمثال هؤلاء لا ينتمون إلى أي حضارة وأمة ، فلو أكدوا انتماءهم إلى الدين الحنيف ، لما آل الوضع عندهم إلى ما هو عليه ، لأن الإسلام هو الذي يحضّ على اكتساب الوقت واغتنامه ، وإن انتموا إلى الغرب و . . . ، فهذا ليس صحيحاً أبداً ، لأن أولئك القوم يعملون ويعملون ، الخوف أن ينطبق على أمثال هؤلاء قول الشاعر :

والوقت أنفسُ ما عُنيت بحفظه وأراه أسهـلَ مـا عليـك يضيـع!!

وإذا ضاع الوقت والعمر ، فهل هناك من عودة إذا ندم الإنسان ؟!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩-١٠٠] .

* * *

الفصل الثاني

التعب والترحال من أجل ضبط العلم!!

علىٰ الرغم من أن علماءنا عرفوا أن الله سبحانه تكفّل بحفظ الشريعة الإسلامية .

كما ورد في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

وكما ورد في القرآن عن سنة رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣-٤] .

علىٰ الرغم من هذا الحفظ ، فقد قام العلماء بجهود لا مثيل لها ، وتعبوا في سبيل ذلك تعباً كثيراً ، والهدف هو المساهمة في حفظ العلوم الشرعية وضبطها الضبط الأكيد ، ولذلك كله اهتموا كثيراً بمسألة الإسناد ، حتىٰ قيل : الإسناد خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية ، ورحم الله عبد الله بن المبارك عندما قال : الإسناد عندي من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء : ما شاء!![1] .

ورحم الله الإمام الشافعي عندما قال : مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعىٰ وهو لا يدري!!

ورحم الله ابن حزم عندما قال : نَقْلُ الثقة عن الثقة ، حتى يبلغ به

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٦/١٦٧ .

النبي ﷺ ، مع الاتصال ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه ، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان : خصَّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها ، وأبقاه عندهم غضّاً جديداً علىٰ قديم الدهور ، يرحل في طلبه إلىٰ الآفاق البعيدة من لا يُحصي عددهم إلا خالقهم ، ويواظب علىٰ تقييده من كان الناقل قريباً منه .

قد تولّىٰ الله حفظه عليهم والحمد لله رب العالمين ، فلا تفوتهم زلّة في كلمة فما فوقها ، في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم ، ولا يُمكنُ فاسقاً أن يُقحم كلمةً موضوعةً ، ولله تعالىٰ الشكر[1] .

وفي التاريخ الإسلامي السامي أمثلة رائعة عن الفائدة من الإسناد ، فعن ابن عليّة وإسحاق بن إبراهيم ، قالا : أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال : لأُريح العباد منك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتُها فيكم! أحرِّمُ فيها الحلال ، وأحللُ فيها الحرام ، ما قال النبي صلوات الله عليه منها حرفاً!!

فقال له هارون : وأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ، ينتخلانها نخلاً ، فيخرجانها حرفاً حرفاً[2] .

وفي سنة (٤٤٧هـ) زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، أظهر بعض اليهود كتاباً ، ادّعوا فيه أنه كتاب رسول الله إلى أهل خيبر بإسقاط الجزية عنهم!!

وفي الكتاب شهادة بعض الصحابة بذلك ، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه فيه ، وجاؤوا بالكتاب إلى رئيس الرؤساء أبي القاسم

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٢/ ٨٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي : ١/ ٢٧٤ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ١/ ١٥٢ .

علي بن الحسن وزير القائم بأمر الله ، فعرضه رئيس الرؤساء على الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالىٰ ، فتأمَّلهُ ثم قال : هذا كذب مزوّر ، فقيل له : من أين لك هذا ؟

قال : فيه شهادة معاوية ، وهو إنما أسلم عام فتح مكة ـ وكان فتحها عام (٨هـ) بينما كان فتح خيبر في السنة السابقة أي عام (٧هـ) ـ ، وفيه شهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وهو قد مات يوم بني قريظة قبل فتح خيبر بسنتين ، فاستحسن ذلك منه رئيس الرؤساء واعتمده وأمضاه ، وردّ اليهود شرّ ردٍّ لظهور تزوير الكتاب[١] .

ولمعرفة مدىٰ اهتمام العلماء بالسند والضبط والتحرّي ، يكفي النظر إلىٰ الكتاب الذي جمعه الإمام البخاري ، بحيث نرىٰ في صحيحه : ألفين وستمئة واثنين من الأحاديث المسندة ، سوىٰ المكررة ، والعجيب أن البخاري انتقاها من مئة ألف حديث صحيح يحفظها ! !

وفيه قريب من ألفي راوٍ ، اختارهم من نيّف وثلاثين ألفاً من الرواة الثقات الذين يعرفهم .

وفي هذا من الدقة والضبط والاهتمام بالسند ما لا نظير له عند كل الأمم .

ورحم الله الإمام الشاطبي عندما قال : جعلوا الإسناد من الدين ، ولا يعنون ـ العنعنة ـ مجرداً ، بل يريدون ذلك لما تضمّنه من معرفة الرجال الذين يحدّثُ عنهم ، حتىٰ لا يُسند عن مجهول ولا مجروحٍ ولا مُتّهم ، إلا عمن تحصلُ الثقة بروايته ، لأن روح المسألة أن يغلبَ علىٰ الظن من غير ريبة أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ ، لنعتمد عليه

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١٢/ ١٠٢ ، طبقات الشافعية للسبكي : ٣/ ١٥ .

في الشريعة ، ونُسند إليه الأحكام[1] .

وامتد السند واتسع حتىٰ شمل ـ عند المسلمين ـ كل العلوم ، فالتفسير نُقل بالسند ، والحديث النبوي نُقل بسند ، وشرح الأحاديث . . والشعر ، والتاريخ ، والفقه . . ! بل وحتىٰ الأمور التي تُقال للتسلية كأخبار المجانين والمغفلين والحمقىٰ والأذكياء وما إلى هنالك ، نُقلت عن طريق الإسناد ، مثال ذلك كتاب (عقلاء المجانين) للنيسابوري (ت : ٤٠٦هـ) .

أجل : لقد تعب الأسلاف كثيراً ، وضحّوا بالغالي والنفيس في سبيل الحصول علىٰ أمور علمية ، ومن ثم إيصالها وتبليغها للناس .

وفي القرآن مثال حيّ لما حدث مع نبي الله موسىٰ عليه السلام ، حيث أنه كابد الصعاب والمشاق من أجل العلم لله وحده .

لقد رحل موسىٰ عليه السلام مع غلامٍ له إلىٰ حيث يوجد العبد الصالح ، لماذا ؟ كي يتعلّم منه!! وهو النبي المرسل ، واحد من أولي العزم ، يرحل إلى عبدٍ من عباد الله من أجل العلم! ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ

---

(١) الاعتصام : ١/٢٢٦ .

إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف : ٦٠ـ٨٢] .

وقد أوردت كتب الأحاديث الشريفة قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر كاملة :

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إنَّ موسىٰ قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئل : أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه ، إذ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحىٰ الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين ، هو أعلم منك .

قال موسىٰ : يا رب ، فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً ، فتجعله في مِكْتل ـ قفّة ـ فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثمَّ ، فانطلق موسىٰ ، ومعه فتاه ـ

يوشع بن نون ـ حتىٰ إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما ، فناما واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ .

وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يخبره عن الحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسىٰ لفتاه : ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ .

ـ قال : ولم يجد موسىٰ النَّصب حتىٰ جاوز المكان الذي أمره الله به ـ فقال فتاه : ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ .

قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسىٰ وفتاه عجباً ، فقال موسىٰ : ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ . قال : رجعا يقصان آثارهما ، حتىٰ انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجىً بثوب ، فسلّم عليه موسىٰ ، فقال الخضر : وأنىٰ بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسىٰ ، قال : موسىٰ بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ .

يا موسىٰ ، إني علىٰ علم من علم الله ، لا تعلمه ، علّمنيه ، وأنت علىٰ علم من علم الله علّمكه ، لا أعلمه ، فقال موسىٰ : ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ فقال له الخضر : ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمشيان علىٰ الساحل ، فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نَوْل ـ أي أجر ـ فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدُّوم ، فقال له موسىٰ : قوم قد حملونا بغير

نول ، عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها : ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً ، وجاء عصفور ، فوقع علىٰ حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالىٰ إلا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر!

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان علىٰ الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله .

فقال له موسىٰ : ﴿أقتلت نفساً زكيةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نكراً﴾ قال : ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال سفيان : وهذه أشدّ من الأولىٰ .

﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتىٰ إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه .

فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا : ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال الخضر : ﴿هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسىٰ ، لوددت أنه كان صبر ، حتىٰ يقص الله علينا من أخبارهما »[1] .

وعقّب الإمام ابن حجر العسقلاني علىٰ هذا الحديث بقوله :

---

(١) للتوسع يراجع : التفسير الكبير للرازي : ٢١/٢٤٢ ، الكشاف للزمخشري : ٢/٢٦٣ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠/٤٢٦ .

هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب الحديث ، لأن ما يُغتبط به تُحتمل المشقة فيه ، ولأن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من السيادة : المحلّ الأعلىٰ ، من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوب البحر في طلب العلم ، بل في طلب الاستكثار منه ، ومشروعية حمل الزاد في السفر ، ولزوم التواضع في كل حال ، وخضوع الكبير لمن يتعلم منه ، ولهذا حرص موسىٰ علىٰ الالتقاء بالخضر عليهما السلام ، وطلب التعلم منه تعليماً لقومه أن يتأدّبوا بأدبه ، وتنبيهاً لمن زكىٰ نفسه أن يسلك مسلك التواضع ، وفيه فضل الازدياد من العلم ولو مع الشقة والنصب بالسفر(١) .

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالىٰ في تعليقة علىٰ هذه القصة : ـ وهو يعدّد فضائل شرف العلم وأهله ـ :

الوجه الرابع والثلاثون : أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيّه وكليمه ، الذي كتب له التوراة بيده ، وكلّمه منه إليه : أنه رحل إلى رجلٍ عالمٍ يتعلّم منه ، ويزداد علماً إلىٰ علمه ، فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] . حرصاً منه على لقاء هذا العالم ، وعلىٰ التعلم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلّم مع معلّمه ، وقال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

فبدأه بعد السلام بالاستئذان علىٰ متابعته ، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه ، وقال : ﴿علىٰ أن تعلمني مما علمت رشداً﴾ فلم يجئ ممتحناً

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ١/ ١٥٣ .

ولا متعنتاً ، وإنما جاء متعلّماً مستزيداً علماً إلىٰ علمه .

وكفىٰ بهذا فضلاً وشرفاً للعلم ، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتىٰ لقي النَّصَب من سفره ، في تعلّم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولما سمع به لم يقرَّ له قرار حتىٰ لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم[1] .

وعلىٰ هذا المنوال سار الصحب الكرام ، ومن بعدهم ، يقطعون المسافات الشاسعة لسماع حديث أو تفسير آية أو حكم مسألة شرعية ، ولم يكن وقتئذٍ سوىٰ المشي علىٰ الأقدام . . . ! !

ورحم الله الفيلسوف الإسلامي ابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) عندما قال :

إنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة : مزيد كمال في التعليم ، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلّون به من المذاهب والفضائل ، تارةً : علماً وتعليماً ولقاءً ، وتارةً : محاكاة وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أَنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين ، أشدّ استحكاماً وأقوىٰ رسوخاً ، فعلىٰ قَدْر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها وتفتحها .

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلِّطة على المتعلِّم ، حتىٰ لقد يظنُّ كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين .

فلقاء أهل العلوم ، وتعدّد المشايخ : يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهما فيها ، فيجرّه العلم فيها ، ويعلم أنها أنحاء تعليم

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٧ .

وطُرق توصيل ، وتنهض قواه إلىٰ الرسوخ والاستحكام في الملكات ، ويصحّح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين ، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، وهذا لمن يسّر الله عليه طرق العلم والهداية .

فالرحلة لابد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمال ، بلقاء الشيخ ، ومباشرة الرجال :

﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

ورحم الله الإمام ابن جماعة عندما قال . . ـ وهو يتحدث عن آداب المتعلم في نفسه : ـ . . الثالث : أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلىٰ التحصيل ، ولا يغتر بخُدع التسويف والتأميل ، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب ، وبذل الاجتهاد ، وقوة الجد في التحصيل ، فإنها كقواطع الطريق .

ولذلك استحبّ السلف التغرّب عن الأهل ، والبُعد عن الوطن ، لأن الفكرة إذا توزّعت قصُرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق ، ولذلك يقال : العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلك[1] .

ورحم الله المحدث ابن رشيد السّبتي (ت : ٧٢١هـ) عندما كان ينشد :

فغرِّب ولا تحفِل بفُرقة موطنٍ	تَفُزْ بالمُنىٰ في كل ما شئت من حاجِ
فلولا اغتراب المسك ما حلَّ مَفْرِقاً	ولولا اغترابُ الدُّر ما حلَّ في التاج

ورحم الله التابعي الجليل (عامر بن شراحيل) (ت : ١٠٣هـ) :

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم : ٧٠ـ٧٥ .

فقد رحل من الكوفة إلىٰ مكة في ثلاثة أحاديث ذُكرت له ! !

فقال : لعلي ألقى رجلاً لقي النبي ﷺ ، أو : من أصحاب النبي ﷺ[1] .

ورحم الله الإمام أبا عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني (ت : ١٧٦هـ) ـ وهو أحد أصحاب مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم ـ عندما قال عن نفسه :

لما أتيت الكوفة ، وأكثر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش ، فسألت عنه فقيل له : غضب علىٰ أهل الحديث ، فحلف أن لا يُسمعهم مدة .

فكنت أختلف إلىٰ باب داره لعلي أصل إليه ، فلم أقدر علىٰ ذلك! فجلست يوماً علىٰ بابه وأنا متفكّر في غربتي وما حُرمته من السماع منه! إذ فتحت جارية بابه يوماً وخرجت منه ، فقالت لي : ما بالك علىٰ بابنا ؟!

فقلت : أنا رجل غريب ، وأعلمتها بخبري .

قالت : وأين بلدكم ؟ قلت : إفريقية ، فانشرحت لي وقالت : تعرف القيروان ؟

قلت : أنا من أهلها ، قالت : تعرف دار ابن فروخ ؟ قال : أنا هو ، فتأمّلتني ثم قالت : عبد الله ؟ قلت : نعم ، وإذا هي جاريةٌ كانت لنا بعناها صغيرة ، فسارعت إلى الأعمش وقالت له : إن مولاي الذي كنت أخبرك بخبره بالباب ، فأمرها بإدخالي فدخلت ، وأسكنني بيتاً قبالة بيته ، فسمعت منه وحدّثني ، وقد حرم سائر الناس ، إلىٰ أن قضيت إربي منه .

---

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي : ٢٢٥ .

وذكر المالكي عنه أنه رحل قديماً ، فلقي الشيوخ والفقهاء ، وسمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة غير مدوّنة ، يقال إنها عشرة آلاف مسألة ، وذكر أنه قال : سقطتْ آجرة من أعلىٰ دار أبي حنيفة ـ وأنا عنده ـ على رأسي فأُدمي! فقال : اختر الأرش ـ الدِّية ـ أم ثلاثمئة حديث ؟

قلت : الحديث ، فحدثني[1] .

وأما الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقد طاف الدنيا مرتحلاً من مكان إلىٰ آخر لا لشيء من متاع الدنيا ، إنما من أجل تحصيل العلم ، وقال عن نفسه :

رحلت في طلب العلم والسنّة إلىٰ الثغور ، والشامات ، والسواحل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عُدت إلى بغداد .

وخرجتُ إلى الكوفة ، فكنت في بيتٍ تحت رأسي لبنةٌ ، فحُممتُ! فرجعتُ إلى أمي رحمها الله ولم أكن استأذنتها ، ولو كان عندي تسعون درهماً كنتُ رحلت إلىٰ جرير بن عبد الحميد إلى الريّ ، وخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج ، لأنه لم يكن عندي شيء!![2] .

وأما الحافظ بقيُّ بن مخلد الأندلسي (ت : ٢٧٦هـ) رحمه الله تعالىٰ ، فكان له قصص عجيبة في الترحال من أجل لقاء العلماء والأخذ عنهم ، يقول عن نفسه :

. . ولما قربتُ من بغداد اتصل بي خبر المحنة التي دارت علىٰ

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ١/ ٢٤٢ .

(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير : ١٠/ ٣٣٦ .

أحمد بن حنبل ، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه ، فاغتممت بذلك غماً شديداً ، فاحتللتُ الموضع ، فلم أُعرّج علىٰ شيء بعد إنزال متاعي في بيت اكتريته في بعض الفنادق ، أن أتيتُ المسجد الجامع الكبير ، وأنا أريد أن أجلس إلىٰ الحِلَق وأسمع ما يتذاكرونه ، فدُفعت إلىٰ حلقة نبيلة ، فإذا برجل يكشف عن الرجال ، فيضعّف ويقوّي ، فقلت : من هذا ؟ لمن كان قُربي ، فقال : يحيىٰ بن معين ، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قربه ، فقمت إليه فقلت : يا أبا زكريا رحمك الله ، رجل غريبٌ نائي الدار ، أردتُ السؤال فلا تستخفّني ، فقال لي : قل ، فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث ، فبعضاً زكّى ، وبعضاً جرَّح .

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمار ، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه ، فقال : أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة ، دمشقي ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر أو تقلّد كبراً ما ضرّه شيئاً لخيره وفضله ، فصاح أهل الحَلْقة : يكفيك رحمة الله عليك ، غيرك له سؤال!

فقلت وأنا واقف على قدميَّ : أكشفُك عن رجل واحد ـ أي أسألك عنه ـ : أحمد بن حنبل ؟

فنظر إليَّ يحيىٰ بن معين كالمتعجّب وقال لي : ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل ؟! إن ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم .

ثم خرجتُ أستدل علىٰ منزل أحمد بن حنبل ، فدللتُ عليه ، فقرعت بابه ، فخرج إليّ وفتح الباب ، فنظر إلى رجلٍ لم يعرفه ، فقلت : يا أبا عبد الله! رجل غريب الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيّد سنّة ، ولم تكن رحلتي إلا إليك ، فقال لي : ادخل الأسطوان ـ أي ممر الدار ـ ولا تقع عليك عين .

فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال لي :

إفريقية ؟ فقلت : أبعد من ذلك ، فقال لي : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحب إليَّ من أحسن عون مثلك علىٰ مطلبه ، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك ، فقلت له : بلىٰ قد بلغني وأنا قريب من بلدك مقبل نحوك .

فقلت له : يا أبا عبد الله ، هذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السُّؤَّال ، فأقول عند باب الدار ما يقولونه ، فتخرج إلىٰ هذا الموضع ، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية ، فقال لي : نعم ، على شرط أن لا تظهر في الحلق ولا عند أصحاب الحديث ، فقلت : لك شرطك ، فكنت آخذ عوداً بيدي ، وألفُّ رأسي بخرقة ، وأجعل كاغدي - ورقي - ودواتي في كمّي ، ثم آتي بابه فأصيح : الأجر رحمكم الله ، والسؤال هنالك كذلك ، فيخرج إلي ويغلق باب الدار ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، حتى اجتمع لي نحو من ثلاثمئة حديث .

فالتزمت ذلك حتىٰ مات الممتحنُ له ، وولي بعده من كان علىٰ مذهب السنة ، فظهر أحمد بن حنبل ، وسما ذكره ، وعظم في عيون الناس ، وعلت إمامته ، وكانت تُضرب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حقَّ صبري .

فكنت إذا أتيت حلْقته فسح لي وأدناني من نفسه ، ويقول لأصحاب الحديث : هذا يقع عليه اسم طالب العلم ، ثم يقصّ عليهم قصتي معه ، فكان يناولني الحديث مناولةً ، ويقرؤه علي ، وأقرؤه عليه .

فاعتللت علّة أشفيت منها ، فقعدني من مجلسه فسأل عني ، فأُعلم بعلّتي ، فقام من فوره مقبلاً إليّ عائداً لي بمن معه ، وأنا مضطجع في البيت الذي كنتُ اكتريتُ ، ولِبْدي تحتي ، وكسائي عليّ ، وكتبي عند رأسي .

فسمعت الفندق قد ارتجّ بأهله وأنا أسمعهم يقولون : هو ذاك ، أبصروه ، هذا إمام المسلمين مقبلاً ، فبدر إليّ صاحب الفندق مسرعاً ، فقال لي : يا أبا عبد الرحمن هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائداً لك .

فدخل فجلس عند رأسي وقد احتشى البيتُ من أصحابه فلم يسعهم ، حتى صارت فرقة منهم في الدار وقوفاً وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات :

قال : يا أبا عبد الرحمن : أبشر بثواب الله ، أيام الصحة لا سَقَم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه .

ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ، ويخدمونني ديانةً وحسبةً ، فواحد يأتي بفراش ، وآخر بلحافٍ وبأطايب من الأغذية ، وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لو كنتُ بين أظهرهم ، لعيادة الرجل الصالح لي(١) .

أجل : سار (بقي بن مخلد) رحمه الله من الأندلس إلى مصر والشام والحجاز وبغداد ، طلباً للعلم ، وامتدّت الرحلة الأولى أربعة عشر عاماً ، والثانية عشرين عاماً ، وكل ذلك كان مشياً على القدمين ! !

ورحم الله الإمام الرازي (ت :٢٧٧هـ) فقد قطع المسافات التي يعجز طالب علم في زماننا هذا أن يقطعها ، وذلك بهدف تحصيل العلم فقط ، يقول ابنه عن ذلك : سمعت أبي يقول : أول ما خرجت في طلب

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٣/ ٢٩٢ ، المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، للعليمي : ١/ ١٧٧ .

الحديث أقمت سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميَّ زيادةً علىٰ ألف فرسخ ـ ويقدّر كل فرسخ بخمسة كيلومترات ـ وأما ما كنتُ سرت أنا من الكوفة إلىٰ بغداد فما لا أُحصي كم مرة ، ومن مكة إلىٰ المدينة المنورة مرات كثيرة ، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا ـ في المغرب ـ إلىٰ مصر ماشياً ، ومن مصر إلىٰ الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلىٰ بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلىٰ دمشق ، ومن دمشق إلىٰ حمص ، ومن حمص إلىٰ أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرسوس ، ثم أرجعت من طرسوس إلىٰ حمص ، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته ، ثم خرجت من حمص إلىٰ بيسان ، ومن بيسان إلىٰ الرقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلىٰ بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلىٰ الشام من واسط إلىٰ النيل ، ومن النيل إلىٰ الكوفة ، كل ذلك ماشياً ، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة ، أجول سبع سنين ، خرجت من الري سنة (٢١٣هـ في شهر رمضان) ، ورجعت سنة (٢٢١هـ) .

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ، ورجعت سنة خمس وأربعين ، أقمت ثلاث سنين ، وكانت سني في هذه الرحلة (٤٧ سنة)!!![1] .

ورحم الله الإمام (ابن المقرئ) (ت : ٣٨١هـ) والذي جاء في ترجمة حياته :

الإمام الرحال الحافظ الثقة ، قال أبو طاهر أحمد بن محمود : سمعت ابن المقرئ يقول :

طُفتُ الشرق والغرب أربع مرات!!

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي : ٣٦٠ .

وروىٰ اثنان عنه أنه قال : مشيت بسبب نسخة (المفضل بن فضالة المصري) سبعين مرحلة ، ولو عُرضت علىٰ خبازٍ برغيف لم يقبلها! ودخلت بيت المقدس عشر مرات!![1] .

ورحم الله الإمام الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) والذي لاقىٰ ما لاقاه في سبيل العلم ، ومما قاله ابن خلكان : سمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجلي الزمخشري كانت ساقطة ، وأنه كان يمشي في جارن خشب ، وكان سبب سقوطها ، أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق ، فسقطت منه رجله ، وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلقٍ كثير مما اطّلعوا علىٰ حقيقة ذلك ، خوفاً من أن يظنّ من لم يعلم صورة الحال ، أَنَّها قُطعت لريبة!

والثلج والبرد كثيراً ما يُؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط! خصوصاً خوارزم فإنها في غاية البرد ، وقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه[2] .

ورحم الله شيخ الإسلام ، أبو الوقت عبد الأول السجزي الهروي (ت : ٥٥٣هـ) ، فقد لاقىٰ في سبيل العلم الشيء الكثير ، من ذلك ما حدث به تلميذه يوسف الشيرازي فقال :

لما رحلت إلىٰ شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت ، قدّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد (كرمان) فسلّمت عليه ، وقبّلته ، وجلست بين يديه ، فقال لي : ما أقدمك هذه البلاد ؟ قلت : كان قصدي إليك ، ومعوّلي بعد الله عليك ، وقد كتبت ما وقع إليّ من حديثك بقلمي ، وسعيتُ إليك بقدمي ، لأُدرك بركة أنفاسك ، وأحظىٰ بعلوّ إسنادك .

---

(١) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي : ٣/ ٩٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢/ ٨٢ .

فقال : وفّقك الله وإيانا لمرضاته ، وجعل سعينا له ، وقصْدنا إليه ، لو كنتَ عرفتني حقّ معرفتي ، لما سلّمت عليّ ، ولا جلستَ بين يديَّ ، ثم بكىٰ بكاءً طويلاً ، وأبكىٰ من حضره ، ثم قال : اللهم استرنا بسترك الجميل ، واجعل تحت الستر ما ترضىٰ به عنا .

يا ولدي ، تعلمُ أني رحلت أيضاً لسماع (الصحيح) ماشياً مع والدي ، من هراة إلى الداوديِّ ببوشَنْج ، ولي من العمر دون عشر سنين ، فكان والدي يضع علىٰ يديَّ حجرين ، ويقول : احملهما ، فكنت من خوفه أحفظهما بيديَّ ، وأمشي وهو يتأمَّلني ، فإذا رآني قد عييتُ أمرني أن أُلقي حجراً واحداً ، فألقي ، ويخفُّ عني ، فأمشي إلىٰ أن يتبين له تعبي ، فيقول لي : هل عييت ؟ فأخافه وأقول : لا ، فيقول : لم تقصّر في المشي ؟ فأسرع بين يديه ساعةً ، ثم أعجزُ ، فيأخذ الحجر الآخر فيلقيه ، فأمشي حتىٰ أعطب ، فحينئذٍ كان يأخذني ويحملني ، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم ، فيقولون : يا شيخ عيسىٰ ، ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلىٰ (بوشنج) ، فيقول والدي : معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ، بل نمشي ، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ورجاء ثوابه ، فكان ثمرة ذلك من حُسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره ، ولم يبق من أقراني أحدٌ سواي ، حتىٰ صارت الوفود ترحل إليّ من الأمصار .

ثم أشار إلىٰ صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يقدّم لي حلواء ، فقلت : يا سيدي ، قراءتي لجزء أبي الجهم أحبّ إليّ من أكل الحلواء ، فتبسم ، وقال : إذا دخل الطعام ، خرج الكلام ، وقدّم لنا صحناً فيه حلواء الفانيذ ، فأكلنا ، وأخرجت الجزء ، وسألته إحضار الأصل فأحضره ، فقرأت الجزء ، وسررت به ، ويسّر الله سماع

(الصحيح) وغيره مراراً ، ولم أزل في صحبته وخدمته إلىٰ أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء سادس ذي القعدة سنة ٥٥٣هـ ، ودفناه بالشونيزية ، قال لي : تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية .

ولما احتضر سندته إلىٰ صدري ، وكان لهجاً منهمكاً بالذكر ، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي ، وأكبَّ عليه ، وقال : يا سيدي ، قال النبي ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »[١] . فرفع طرفه إليه وتلا : ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس : ٢٦ـ٢٧] .

فدهش محمد بن القاسم ومن حضر من الأصحاب ، ولم يزل يقرأ حتىٰ ختم السورة وقال : الله الله الله ، وتوفي وهو جالس على السجادة رحمه الله تعالىٰ[٢] .

أجل :

تلك لقطات مما لاقاه العلماء الأفذاذ من تعب ونصب وتطواف في الأرض ، لا من أجل منفعة دنيوية ، إنما من أجل تلقي العلم ولقاء العلماء .

لقد قُطعت من أعمارهم الأيام والسنوات ، حتىٰ إن البعض أمضى قرابة الأربعين عاماً ، بعيداً عن وطنه وأهله[٣] .

وكان جزاء هذا الصبر على تحمّل المشاق في سبيل العلم أن أصبحوا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ، والحاكم في المستدرك . [كنز العمال للمتقي الهندي : ١/ ٤١٨] .

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي : ٢٠/ ٣٠٣ـ٣٠٦ .

(٣) وللتوسع يراجع : الرحلة في طلب الحديث للحافظ الخطيب البغدادي ، وصفحات من صبر العلماء للمرحوم عبد الفتاح أبو غدة ، وغير ذلك من كتب السير والتراجم .

أئمة أعلاماً يُقتدىٰ بهم ، وأصبحوا منارات للأجيال القادمة ، لأمل المستقبل ، للشباب ، وعند الله نالوا الرضا والتوفيق والسعادة .

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا نسير علىٰ خطّ العلم ، وأن يجعل هذه النماذج قدوة وأسوة لنا ، وأن يرينا في الدنيا نتائج وعده ، وأن يجعل الإخلاص رائدنا في القول والعمل ، إنه علىٰ ما يشاء قدير .



الفصل الثالث

هجرهم اللذات من أجل العلم!!

في القرآن والسنّة النبوية حديث مستفيض عن الترغيب في الزواج ، لكن قد نعجب من أن أكابر علماء السلف فضّلوا العزوبة علىٰ الزواج!!

كيف ذلك ، وهم الأعلام وأهل الصلاح ، وهم الذين يعرفون أوامر الشريعة في هذا المجال ؟

لقد آثروا العلم على الزواج ، وفرّغوا كل طاقاتهم لخدمة العلم ، وبدل أن يخلد ذكرهم الأولاد ، خلّد العلم ذكرهم ، كما قال (أبو الفتح البستي) رحمه الله تعالىٰ :

يقولون : ذكر المرء يحيا بنسله ... وليس له ذكرٌ إذا لم يكن نسلُ
فقلتُ لهم : نسلي بدائع حكمتي ... فإن فاتنا نسلٌ فإنا به نسلو!!

وكما قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : ينبغي للإنسان أن يسعىٰ في تحصيل ذرّية تذكر الله تعالىٰ بعده ، فيكون الأجر له ، أو يصنّف كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولَدُهُ المخلَّد ، يُنقل من كتابه ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يمت :

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء![1]

---

(١) صيد الخاطر : ٢٠_٢١ .

ورحم الله حجة الإسلام الإمام الغزالي عندما قال ـ وهو يتحدث عن آفات النكاح ـ :

. . الآفة الثالثة : أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالىٰ ، وجاذباً له إلىٰ طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال ، وادّخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم .

وكل ما شغل عن الله تعالىٰ من أهل ومال وولد ، فهو شؤم على صاحبه ، ولست أعني بهذا أن يدعوه إلىٰ محظور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولىٰ والثانية ، بل أن يدعوه إلىٰ التنعّم بالمباح ، بل إلىٰ الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان في التمتع بهن .

ويثور من النكاح أنواعٌ من الشواغل من هذا الجنس ، تستغرق القلب ، فينقضي الليل والنهار ، ولا يتفرّغ المرء فيهما للتفكر في الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ : من تعوّد أفخاذ النساء لم يجئ منه شيء ، وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ : من تزوّج فقد ركن إلىٰ الدنيا ، أي يدعوه ذلك إلىٰ الركون إلىٰ الدنيا .

فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم علىٰ شخصٍ واحد بأَنَّ الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً : قصورٌ عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل تُتَّخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ـ أي مقياساً ـ ومحكاً ، ويعرض المرء عليه نفسه :

فإن انتفت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخُلق حسن ، وجدٌّ في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله تعالىٰ ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل ، والتحصّن بالعشيرة ، فلا يُمارىٰ أن النكاح أفضلُ له ،

مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد .

فإن انتفت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب ، فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظُّ تلك الفائدة في الزيادة من دينه ، وحظ تلك الآفة في النقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد : الولد ، وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات : الحاجة إلىٰ كسب الحرام ، والاشتغال عن الله تعالىٰ .

فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ، ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يُشكِل عليه شيء مما نقلنا عن السلف ، من ترغيبٍ في النكاح مرة ، ورغبة عنه أخرىٰ ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح[١] .

وقد حدثتنا كتب السير والتراجم عن نماذج من علماء السلف الذين آثروا العلم علىٰ الزواج ، ومنهم :

الإمام العابد ، المحدث الفقيه ، أبو نصر بشر بن الحارث المروزي ، المشهور باسم (بشر الحافي) ، روىٰ عنه أكابر القوم ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وسري السقطي وغيرهما ، وحينما مات (ت : ٢٢٧هـ) خرجت بغداد كلها في جنازته رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

الإمام المجتهد المفسّر الفقيه الأصولي المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، حدثوا عنه في تحصيل العلوم والمجاهدة في هذا المضمار الشيء العجيب ، من ذلك أن بعض تلامذته ، أحصوا أيام حياته ، منذ بلغ الحلم إلىٰ أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢/ ٢١ـ٢٣ .

أوراق مصنفاته ، فصار منها علىٰ كل يوم أربع عشرة ورقة!! وذكر محمد كرد علي في ترجمة حياته :

وما أُثر عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة ، روىٰ المعافىٰ بن زكريا عن بعض الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالىٰ قبل موته ، وتوفي بعد ساعةٍ أو أقلّ منها ، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد رضي الله عنه ، فاستدعى محبرةً وصحيفةً فكتبه!

فقيل له : أفي هذه الحال ؟! فقال : ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتىٰ الممات!![1]

وهكذا أمضىٰ حياته ، عزباً لا زوجة ولا ولد ، وتوفي في (ت : ٣١٠هـ) .

ومنهم :

العلامة الإمام : أبو بكر بن الأنباري ، المفسّر ، الأديب ، النحوي ، قيل في انكبابه علىٰ العلوم الشيء الكثير ، من ذلك :

أنه كان يحفظ ثلاثمئة ألف بيت من الشعر شاهدةً في القرآن!!

وكان يأخذ الرُّطب يشمّه ويقول : أما إنك لطيب ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لي من العلم!!.. وبقي عزباً حتى مات (ت : ٣٢٨هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

إمام أئمة العربية في عصره : أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي .

له مؤلفات في علوم العربية وعلوم القرآن ، وخدم العلم وأهله ، وآثر

---

(١) كنوز الأجداد : ١٢٣ .

العزوبة على الزواج من أجل العلم ، وبقي على ذلك حتى مات (ت : ٣٧٧هـ) رحمه الله تعالىٰ[١] .

ومنهم :

شيخ الإسلام أبو علي الجعفي ، فرّغ نفسه للعلم ، وترك الانشغال بالأولاد والزوجة ، فبلغ المراتب العليا ، حتىٰ إن سفيان بن عيينة كان إذا رآه قبَّل يده!

وقال حميد بن الربيع الخزاز : كتبنا عنه أكثر من عشرة آلاف حديث .

وبقي على حاله حتىٰ وافته المنية (ت : ٢٠٣هـ) رحمه الله تعالىٰ[٢] .

ومنهم :

الحافظ الفقيه الزاهد أبو سعد السمّان الرازي ، أحد المحدثين والفقهاء والمفسرين ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، وكان إماماً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه ، وفي فقه الزيدية ، قرأ على ثلاثة آلاف رجل من شيوخ زمانه!

أوقف كل أوقاته علىٰ قراءة القرآن والتدريس والرواية ، ومات ولم يتزوج .

ومنهم :

إمام العربية الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) ، والعلامة الأديب المفسر المعروف بابن الخشاب (ت : ٥٦٧هـ) ، ومنهم العلامة الفقيه الزاهد : أبو الفتح ناصح الدين الحنبلي (ت : ٥٨٣هـ) ، ومنهم القاضي أبو

---

(١) الأعلام للزركلي : ٢/ ١٩٥ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢/ ٣٥٨ .

الحسن علي الشيباني القفطي (ت : ٦٤٦هـ) ، ومنهم الإمام النووي ، والذي عاش حياة الورع والزهد ، وتفرّغ للدراسة والتدريس والتصنيف ونشر العلم ، ورفض الانشغال بالأولاد والزوجة ، (ت : ٦٧٦هـ) .

ومنهم :

شيخ الإسلام : ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ ، كان عالماً حافظاً ، فقيهاً مجتهداً ، مفسراً بارعاً ، علماً زاهداً ، خدم تفسير القرآن والحديث النبوي الشريف ، وأوذي في ذات الله . . . .

فرّغ وقته كله للعلم ، لذلك قيل : بلغت مؤلفاته قرابة (٥٠٠) خمسمئة كتاب ، أوذي في سبيل الله حتىٰ مات في سجن القلعة بدمشق (ت : ٧٢٨هـ) رحمه الله تعالىٰ ، بعد أن قضى حياته عزباً ، لا ولد ولا زوجة[١] .

وأمثال هؤلاء العلماء العزاب في تاريخنا الكثير[٢] .

* * *

ولم يكتف علماء السلف بترك لذة النكاح من أجل العلم فقط ، بل يتجاوز ذلك إلىٰ ترك لذة النوم والراحة وما إلى هنالك ، لكن لماذا ذلك كله ؟ لأن العلم لابد له من تضحيات كبيرة ، فعلىٰ قدر شرف العلم ومكانته تكون التضحية باللذائذ وما إلى هنالك .

وقد قالوا قديماً : لا يُستطاع العلم براحة الجسد!! والعلم لا يعطيك بعضَهُ إلا إذا أعطيته كلك!!

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي : ٤/١٤٩٦ ، وللتوسع يراجع ترجمته الوافية في مقدمة كتابي : مكارم الأخلاق عند ابن تيمية : ٧ـ٢٣ .

(٢) كتاب : العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج ، عبد الفتاح أبو غدة .

وقد سطر العلماء صفحات خالدة رائعة ، فيها الأدلة الدامغة علىٰ كيفية تحصيل العلوم عن طريق هجر النوم واللذائذ ، ولنضرب بعض الأمثلة :

رحم الله الفقيه السمرقندي عندما قال : لا ينالُ هذا العلم إلا من عطّل دكانه ، وخرّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته ! !

ورحم الله التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح (ت : ١١٥هـ) ، فقد حدثوا عنه أحاديث فيها العجب العجاب ، من ذلك :

قال ابن جُريج : كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة !

وقال إسماعيل بن أمية : كان عطاء يُطيل الصمت ، فإذا تكلَّم خُيّل إلينا أنه مؤيّد .

وكان أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، ثم عمي !

ففي جسمه ستة عيوب ، ولكنه كان ركناً من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة ، وكان ثقة فقيهاً ، حج قرابة سبعين حجة[١] .

ورحم الله المحدث الفقيه التابعي محمد بن شهاب الزهري (ت : ١٢٤هـ) ، تحدثنا سيرته أنه كان إذا ذاكر أمراً ما من العلوم ، طار النوم من عينيه ، وقد ذكر الإمام الليث بن سعد فقال : تذاكر الزهري ليلةً بعد العشاء حديثاً ، وهو جالس متوضئ ، فما زال مجلسه حتى أصبح ! ![٢] .

ورحم الله الفقيه التابعي القاضي ابن شبرمة (ت : ١٤٤هـ) ، فقد

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي : ٤/ ٢٧٩ .
(٢) سنن الدارمي : ١/ ١٢١ .

كان الصبح يؤذن له ، وهو يراجع أموراً في العلم ! !

قال الفضل بن غزوان : كنا نجلس ـ أنا وعبد الله بن شبرمة والحارث بن يزيد والمغيرة بن مقسم الضبي والقعقاع بن يزيد ـ بالليل ، نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتىٰ نسمع النداء لصلاة الفجر ! ![1] .

ورحم الله الإمام المجاهد الورع عبد الله بن المبارك (ت : ١٨١هـ) ، فقد كان يهجر لذة النوم من أجل تحصيل العلوم ، قال علي بن الحسن بن شقيق : قمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة ، ليخرج من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرتهُ ، فما زال يذاكرني حتىٰ جاء المؤذن فأذّن للفجر ! ![2] .

ورحم الله الإمام عبد الرحمن بن قاسم ، المعروف بابن القاسم (ت : ١٩١هـ) والذي لازم الإمام مالك رضي الله عنه وأخذ عنه الكثير ، يحدثنا عما جرىٰ معه فيقول : كنت آتي مالكاً غَلَساً فأسأله عن مسألتين ، ثلاثةٍ ، أربعة ، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر ، فكنت آتي كل سحر .

فتوسدتُ مرةً عتبته ، فغلبتني عيني فنمت ، وخرج مالك إلىٰ المسجد ولم أشعر به ، فركلتني جارية سوداء له برجلها ، وقالت لي : إن مولاك قد خرج ، ليس يغفُلُ كما تغفل أنت ، اليوم له تسع وأربعون سنة ، قلّما صلّىٰ الصبح إلا بوضوء العتمة ! !

ثم يقول : وأنخت بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئاً ، قال : فبينما أنا عنده ، إذ أقبل حاج مصر ، فإذا شاب متلثم دخل علينا ، فسلم علىٰ مالك ، فقال : أفيكم ابن القاسم ؟

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ٨/ ٢٩٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي : ١/ ٢٧٧ .

فأشير إليّ ، فأقبل يقبّل عينيّ ، ووجدت منه ريحاً طيبة ، فإذا هي رائحة الولد ، وإذا هو ابني ، وكان ابن القاسم ترك أمه حاملاً به ، وكانت ابنة عمه ، وقد خيّرها عند سفره لطول إقامته ، فاختارت البقاء!![1] .

ورحم الله الإمام المجاهد العالم الرحالة الفقيه القاضي أسد بن الفرات (ت : ٢١٣هـ) والذي كانت له مع العلوم أمورٌ عجيبةٌ :

كان أسد بن الفرات قاضي القيروان وتلميذ الإمام مالك ومدوّن مذهبه ، وأحد القادة الفاتحين ، فتح صقلية واستشهد بها ، وكان قد خرج من القيروان إلىٰ الشرق سنة ١٧٢هـ ، فسمع الموطأ علىٰ مالك بالمدينة ، ثم رحل إلىٰ العراق ، فسمع من أصحاب أبي حنيفة وتفقه عليهم ، وكان أكثر اختلافه إلىٰ محمد بن الحسن الشيباني ، ولما حضر عنده قال له : إني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نَزْر ، والطلبة عندك كثير ، فما حيلتي ؟

فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتبيت عندي وأسمعك .

قال أسد بن الفرات : وكنت أبيت عنده وينزل إليّ ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعستُ ، ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبي ، حتىٰ أتيت علىٰ ما أريد من السماع عليه!!

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت ، وأعطاه مرة ثمانين ديناراً حين رآه يشرب من ماء السبيل ، وأمدّه بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق[2] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ٢٥١ .

(٢) للتوسع يراجع : ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣/ ٢٩١-٣٠٠ .

ورحم الله عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب القرطبي (ت : ٢٣٨هـ) ، والذي هجر النوم من أجل العلم ، يقول تلميذه أبو عمر يوسف يحيىٰ المغاصي :

طرقت عبد الملك بن حبيب يوماً بغلس ، حرصاً على الاقتباس منهم ، واستأذنت عليه ، فأذن لي ودخلت ، فإذا به جالس في مجلسه ، عاكف علىٰ الكتب ، قد أحاطت به ينظر فيها ، والشمعة بين يديه تقدُ ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة ، فسلّمت فردّ عليّ وقال لي : يا يوسف ، أوَ قد انسلخ الليل ؟ قلت : نعم وقد صلّينا ، فقام إلىٰ صلاة الصبح فصلاّها ، ثم رجع إلى مقعده ، وقال : ما صلّيت هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة ! ![1] .

ورحم الله الإمام البخاري (ت : ٢٥٦هـ) أمير المؤمنين في الحديث ، والذي ما وصل إلىٰ هذه الرتبة الرفيعة إلا بالسهر وقلّة النوم .

قال الحافظ ابن كثير : وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه ، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمرّ بخاطره ، ثم يطفئ سراجه ، ثم يقوم مرة أخرىٰ وأخرىٰ ، حتىٰ كان يتعدّد منه ذلك قريباً من عشرين مرة ! ![2] .

ورحم الله الفقيه المالكي المحدث محمد بن سحنون القيرواني (ت : ٢٥٦) ، حيث كان يفنىٰ في العلم ويستغرق إلىٰ حد عجيب ، من ذلك ما رواه أحد تلامذته فقال : كانت لمحمد بن سحنون سُرّية ـ أمة مملوكة ـ يقال لها : أم مُدام ، فكان عندها يوماً ، وقد شُغل في تأليف

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/ ٤٤ .

(٢) البداية والنهاية : ١١/ ٢٥ .

كتاب إلىٰ الليل ، فحضر الطعام ، فاستأذنتُه ليأكل فقال : أنا مشغول الساعة!

فلما طال عليها ، جعلت تلقّمه الطعام حتىٰ أتت عليه ، وتمادى هو علىٰ ما هو فيه ، إلى أن أُذّن لصلاة الصبح ، فقال : شُغلنا عنك الليلة يا أم مدام ، هات ما عندك ، فقالت : قد والله يا سيدي ألقمته لك ، فقال لها : ما شعرت بذلك!![1] .

ورحم الله الإمام الذهلي (ت : ٢٥٨هـ) شيخ البخاري ومسلم وغيرهم من علماء الحديث ، والذي كان له عشق للعلم ، بحيث ينسى أمام ذلك كله النفس و . . . ، يروي واحد من أولاده فيقول :

دخلت علىٰ أبي في الصيف الصائف وقت القائلة ، وهو في بيت كتبه ، وبين يديه السّراج ـ لظلمة الحجرة التي هو فيها في وسط النهار ـ!

فقلت : يا أبة ، هذا وقت الصيف ، ودخان هذا السراج بالنهار يضرك ، فلو نفَّست عن نفسك ؟

فقال لي : يا بني تقول لي هذا ؟ وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين ؟![2] .

ورحم الله الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت : ٣٢٧هـ) صاحب كتاب الجرح والتعديل ، والذي طلّق النوم والطعام واللذات ، وأوقف نفسه للعلم وحده ، من ذلك ما رواه عن نفسه فقال :

رحل بي أبي من الري إلىٰ خراسان سنة خمس وخمسين ومئتين ، وما احتلمتُ بعد ، فلما بلغنا ذا الحُليفة ـ ميقات أهل المدينة المنورة ـ

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ١١٤ .
(٢) تاريخ بغداد : ٣/ ٤١٩ .

احتلمتُ فسرَّ أبي حيث أدركت حجّة الإسلام .

. . وكنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقةً ، نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونقابل ، فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً ، فقالوا : هو عليل ، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ ، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام ، وكادت أن تُنتن! فأكلناها نيئةً لم نتفرغ نشويها!! ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد!![1] .

ورحم الله الشيخ الرئيس (ابن سينا) (ت : ٤٢٨هـ) ، والذي ما وصل إلى ما وصل إليه من علوم إلا بهجر لذائذ الحياة ، فلقد جاء في ترجمة حياته :

ولما بلغ عشر سنين من عمره ، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة ، ثم أحكم علم المنطق وأقليدس والمجسطي ، وفاق شيخه الحكيم أبا عبد الله الناتلي أضعافاً كثيرة ، وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلىٰ إسماعيل الزاهد ، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي ، وفتح الله عليه أبواب العلوم ، ثم رغب بعد ذلك في علم الطب ، وتأمّل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأدباً ـ تعلماً وتعليماً ـ لا تكسباً ، وعلم الطب حتىٰ فاق فيه الأوائل والأواخر في أقلّ مدة ، وأصبح فيه عديم النظر فقيد المِثْل ، واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه ، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة ، وسنّه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة!

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها ، ولا اشتغل في النهار

---

(١) تذكرة الحفاظ : ٣/ ٨٣ .

بسوىٰ المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضأ وقصد المسجد الجامع ، وصلىٰ ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له ، وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنّف ما يقارب مئة مصنف ، ما بين مطوّل ومختصر ورسالةٍ في فنون شتى ! ![1] .

ورحم الله إمام الحرمين ـ الجويني ـ (ت : ٤٧٨هـ) حيث كان تعلّقه بالعلم شيئاً عجباً ، وقد حدّث تلميذه عبد الغافر الفارسي فقال :

. . لما توفي أبوه الإمام أبو محمد الجويني ، كانت سنّه دون العشرين ، فأُقعد مكانه للتدريس ، فكان يقيم الرَّسم في درسه ، ويقوم منه ويخرج إلىٰ مدرسة البيهقي ، حتىٰ حصّل الأصول وأصول الفقه علىٰ الأستاذ الإمام أبي القاسم الإسكاف الإسفرايني ، وكان يواظب علىٰ مجلسه ، وقد سمعته يقول في أثناء كلامه : كنت علّقتُ عليه في الأصول أجزاءً معدودة ، وطالعت في نفسي مئة مجلّدة ! !

وكان يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ منه ، ويبكّر كل يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه ، إلىٰ مجلس الأستاذ أبي عبد الله الخبازي يقرأ عليه القرآن ، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه مع مواظبته علىٰ التدريس .

ولما عاد من إقامته ومجاورته بمكة المكرمة أربع سنين يدرّس فيها ويفتي ، بُنيت له المدرسة النظامية في نيسابور ، وأُقعد للتدريس فيها ، وبقي علىٰ ذلك قريباً من ثلاثين سنة ، غير مزاحم ولا مدافع ، مُسلَّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة ، وهُجرت له المجالس ، وحضر درسه الأكابر والجمّ العظيم

---

(١) وفيات الأعيان : ١/ ١٥٢ .

من الطلبة ، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمئة رجل من الأئمة ومن الطلبة .

وسمعته في أثناء كلام يقول : أنا لا أنام ولا آكل عادة ، وإنما أنام إذا غلبني النوم ، ليلاً كان أو نهار ، وآكل الطعام إذا اشتهيت الطعام أي وقتٍ كان ، وكان لذّته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم ، وطلب الفائدة من أي نوع كان!![1] .

أجل !

فتلذّذ العلماء لا يكون بالسهرات الحمراء ، ولا باللجوء إلى شواطئ البحار ، ولا بجمع الذهب والفضة ، إنما المسألة كما عبّر عنها علامة العربية الإمام الزمخشري بقوله :

سهـري لتنقيـح العلـوم ألـذّ لـي ... مـن وَصْـلِ غـانيـةٍ وطيـبِ عنـاقِ
وتمـايلـي طـربـاً لحـلّ عـويصـةٍ ... أشهـىٰ وأحلـىٰ مـن مُـدامـة سـاقِ
وصـريـرُ أقـلامـي علـىٰ أوراقهـا ... أحلـىٰ مـن الـدُّوكـاه والعشّـاقِ
وألـذُّ مـن نقـر الفتـاة لـدفّهـا ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي
يـا مـن يحـاول بـالأمـانـي رتبتـي ... كـم بيـن مستغـلٍ وآخـر راقـي
أأبيـتُ سهـران الـدجـىٰ وتبيتـهُ ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي ؟!

❊ ❊ ❊

أجل !

فقد وصل العلماء إلىٰ المراتب العليا ، لا بالأماني والأحلام ، ولا بالدعة والراحة ، إنما وصلوا إلىٰ ذلك بعد تقديم تضحيات عظيمة في سبيل العلم .

---

(١) طبقات الشافعية للإمام السبكي : ٥/ ١٧٤ـ١٧٥ .

لقد آثروا العلم علىٰ النوم ، وآثروه على الزواج ، ولاقوا في سبيل ذلك المشاق الجسيمة ، حتىٰ إنهم فقدوا أغلىٰ ما يملكون ، وهي الكتب والتصانيف .

وللكتب في نفوس العلماء مكانة سامية ، فهي الوحيدة التي يأنسون بها ، وخاصة عندما يخالطون الناس فلا يرون منهم إلا الغش و. . . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا ما عبّر عنه الإمام القاضي الجرجاني بقوله :

ما تطعّمتُ لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شيء عندي أعزّ من العلم ... فما أبتغي سواه أنيسا

إنَّما الذل في مخالطة النا ... س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا[1]

وعندما كان أحد العلماء يفتقد كتابه أو كتباً له ، كان يصاب بمصيبة أكثر من لو أنه أصيب بفقد ولد أو عزيز ، وفي تاريخ العلماء نماذج من ذلك :

رحم الله إمام المحدثين وشيخ البخاري (علي بن المديني) (ت : ٢٣٤هـ) ، جاء في ترجمة حياته : قد ألف كتابه العظيم (المسند) علىٰ الطرق ، واستقصى فيه واستوعب ما أمكنه ، ثم رحل رحلة طويلة ، فطوّف فيها ما طوّف من بلاد الإسلام في ثلاث سنين ، ثم عاد إلىٰ بلده البصرة ، فرأى (مسنده) قد أكلته دودة الكتب وقضت عليه! فمات الكتاب في حياة مؤلفه ! ![2] .

---

(١) وفيات الأعيان : ١/ ٣٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١١/ ٤٦٢ .

ورحم الله الإمام أبو علي الفارسي ، (ت : ٣٧٧هـ) جاء في ترجمة حياته :

لما وقع حريق بمدينة السلام ، وذهب جميع علم البصريين ، وكان لي صندوق مليء بالكتب النادرة ، فاحترقت كلها ، ولم أجد إلا نصف كتاب بالطلاق عن محمد بن الحسن ، فسأله واحد من تلامذته : وماذا حدث لك يا سيدي ؟

فقال : بقيت شهرين لا أكلّم أحداً حزناً وهماً ، وانحدرت إلىٰ البصرة لغلبة الفكر عليّ ، وأقمت مدة ذاهلاً متحيراً ! ![١] .

ورحم الله النحوي البغدادي (أبو محمد سعيد بن المبارك) (ت : ٥٦٩هـ) ، والذي كان له من التصانيف الشيء الكثير ، لكن الله ابتلاه في ذلك ، حيث أخذتها المياه التي أغرقت بغداد ، فلما وصل إليه الخبر ، أصيب بالعمى ! ![٢] .

ورحم الله الأمير الأديب (أسامة بن المنقذ) (ت : ٥٨٤هـ) ، والذي حدث له حادثة ، حيث خرج عليه اللصوص ، فأخذوا كل ما لديه مع نسائه وأولاده ، لكنه قال : وهوّن علي سلامة أولادي وأولاد أخي حرمان ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ! فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت ! ![٣] .

ورحم الله الحافظ عمر بن علي الوادي آشي الشهير بابن الملقن (ت : ٨٠٤هـ) ، والذي جاء في ترجمة حياته أنه لما احترقت كتبه اختلط قبل موته وتغير حاله ! !

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ٧/ ٢٥٧ .
(٢) وفيات الأعيان : ١/ ٢٠٩ .
(٣) الاعتبار لأسامة بن منقذ : ٣٦ .

بل إن أقرانه راحوا يعزّونه ويواسونه في ذلك المصاب ، وكأنهم يعزونه في فقد عزيز ، ومما قاله أحدهم له :

لا يزعجنّك يا سراج الدين إن   لعبَتْ بكتبك ألسنُ النيران
لله قد قرّبتها فتُقبلت   والنارُ مُسرعةٌ إلى القربان[1]

أجل :

كان للعلماء السابقين شغف في اقتناء الكتب ، وكانوا يحافظون عليها إلىٰ درجة كبيرة ، وكانوا يحرصون علىٰ اقتناء ما أمكن منها .

لكن العلماء بذلوا الغالي والنفيس كي يصلوا إلىٰ درجة تحصيل العلوم ، حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب بيع كتبهم وما إلى هنالك ، وهذه هي التضحية في سبيل العلم ، فهل نأخذ درساً واحداً من أولئكم المشاعل ؟!

* * *

---

(١) الضوء اللامع للإمام السخاوي : ٦/ ١٠٥ .

الفصل الرابع

صبر العلماء على شظف العيش من أجل العلم!!

تحمَّل العلماء الكثير في سبيل المحافظة علىٰ مكانة العلم وعدم المساس به ، حتىٰ كانت تضحياتهم في هذا المجال أروع وأخطر القضايا ، لأنها أودت بالكثير منهم إِلىٰ السجن أو الموت أو التعذيب الشديد .

ذلك لأن المسألة لا تتوقف عند موقف يتنازل عنه الإنسان ، أولا ، إنما المسألة لأن العلماء في نظر الشريعة الإسلامية لهم دور كبير وعظيم ، وهو دور : « ورثة الأنبياء » وبالتالي فالعلماء بحق هم المصابيح التي تنير أمام الناس الطريق ، وهم أئمة الهدىٰ ، وحجة الله في أرضه ، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال ـ كما في مسند الإمام أحمد ـ : « إِنَّ مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإِذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » .

لكن الشريعة لا تنظر إِلىٰ جانب واحد فقط ـ وهم العلماء ـ إِنَّما توسّع الدائرة ، فترىٰ صلاح الناس لا يكون إلا بصلاح الحكام والعلماء ، روىٰ أبو نعيم بالسند المتصل إِلىٰ رسول الله ﷺ أنه قال : « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإِذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » .

والناس تتبع توجيهات العلماء ونصائحهم ، وتخضع لسلطان الحكام وتنفذ أوامرهم ، ولن تؤول أمة إِلىٰ هاوية إِلاّ إذا فسد علماؤها

وحكامها ، وقد روىٰ البخاري ومسلم قول رسول الله ﷺ : « يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار في الرحىٰ ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ فيقول : بلىٰ كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه » .

وروىٰ الطبراني أن النبي ﷺ قال : « إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمه كفره ، ولكن أتخوف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون » .

ورحم الله القائل :

يـا معشـر القـرّاء يـا ملـح البلـد   من يصلح الملح إذا الملح فسد؟!

لكن إذا رفض الحاكم السماع لنصيحة العالم ، وأصرّ علىٰ ظلمه وانحرافه ، هنا يدخل العالم في مسألة المحن والفتن ، وعندئذٍ فما عليه إلا الصبر والثبات ، ذلك لأن سنة الله في الكون هي الفتنة والاختبار ، وذلك بهدف التمحيص ، كما قرر الله ذلك في القرآن الكريم :

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ١ـ٣] .

لأن الدنيا ستنقضي بلحظات ، والفائز الحق هو الذي يبيع كل ما يملك ـ حتىٰ روحه ـ ليشتري رضوان الله وجنته ، قال الله تعالىٰ :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من بطولات علمائنا هي الأنموذج

للقدوة والأسوة ، من ذلك : الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالىٰ :

كان جريئاً في الفتوىٰ ، شديداً في محاسبته للأمراء والحكام ، حتىٰ إن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قد أبدىٰ تضايقه من آرائه وفتاويه ، فكانت الخطوة الأولىٰ للمحنة أن أصدر قراراً بمنعه من الفتوىٰ ! !

روىٰ الخطيب البغدادي : أن القاضي (ابن أبي ليلىٰ) نظر في أمر امرأة مجنونة قالت لرجل : يا بن الزانية ، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدّها حدّين : حداً لقذف أبيه ، وحداً لقذف أمه ! !

فبلغ ذلك أبا حنيفة رحمه الله تعالىٰ ، فقال : أخطأ فيها في ستة مواضع :

ـ أقام عليها الحدّ في المسجد ! ولا تقام الحدود في المساجد .

ـ وضربها قائمة ! والنساء يضربن قعوداً .

ـ وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ! ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد .

ـ وجمع بين حدين ! ولا يجمع بين حدين .

ـ والمجنونة ليس عليها حد !

ـ وحدّ لأبويه وهما غائبان ! ولم يحضرا فيدعيا .

فبلغ ذلك ابن أبي ليلىٰ ، فدخل على الأمير فشكاه إليه ، وحجر علىٰ أبي حنيفة ، وقال : لا يفتي ، فلم يفت أياماً[1] .

ثم مارسوا معه لوناً آخر من الإغراء ، فعرضوا عليه الأموال ، فأبىٰ

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣/ ٣٥١ .

وقال : لو كانت من أموالكم لقبلتها هدية ، لكنها من أموال المسلمين ولا حق لكم في بيت مال المسلمين!!

ثم ندبوه إلىٰ منصب القضاء فرفض ، وعلّل الرفض بأنه يريد المحافظة علىٰ هذا المنصب نظيفاً لا يضغط أحد عليه مهما كان مركزه مرموقاً .

قال الربيع بن يونس : رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول : اتق الله ولا تدع أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟

ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو إلىٰ الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلىٰ من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك .

فقال الخليفة : كذبت ، أنت تصلح .

فقال أبو حنيفة : قد حكمت علىٰ نفسك ، كيف يحلّ لك أن تولّي قاضياً علىٰ أمانتك كذّاباً ؟!![1] .

وأمر الخليفة أن يوضع في بيته بصفة الإقامة الجبرية ، ومُنع من لقاء الناس والتدريس وما إلى هنالك .

ثم وضع في السجن ، وضرب مئة وعشرة أسواط ، ثم دسّوا له السم ، وفاضت روحه إلى بارئها في (١٥٠هـ) لتكون شاهداً على حراسة العلماء لهذا الدين ، ولتكون أنموذجاً لتضحيات العلماء في سبيل العلم ، ورحم الله الإمام محمد أبو زهرة عندما قال : . . ومات أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء ، وكان في الموت راحة لذلك الضمير المضيء ، ولذلك الوجدان الديني المرهف ، ولذلك القلب القوي ،

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣/٣٢٨ .

ولذلك العقل الجبار ، ولتلك النفس الصبور ، التي لاقت الأذى فاحتملته ، لاقته من المخالفين له في الآراء ورميت في كل رمية ، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية ، ولقيت الأذىٰ من السفهاء ثم لقيته من الأمراء والخلفاء .

وما ضعفت وما وهنت ، وإذا كان للنفوس جهاد ، ولجهادها ميادين ، فأبو حنيفة رضي الله عنه كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد ، وممن انتصر في كل ميادينه .

وكان جلداً في جهاده قوياً في جلاده ، حتىٰ وهو يلفظ النفس الأخير ، فهو يوصي بأن يُدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غصب ، وألا يدفن في أرض اتهم أمير المؤمنين بأنه غصبها ، حتىٰ يروىٰ أن أبا جعفر المنصور عندما علم ذلك قال : من يعذرني من أبي حنيفة حياً أو ميتاً !![1] .

وهكذا ، فقد ضُرب إمام دار الهجرة ، الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ ، سبعين سوطاً ، حتىٰ قيل لقد خُلعت كتفه اليمنىٰ ، وهو ثابت علىٰ أمانة العلم لا يخاف في الله لومة لائم[2] .

أجل : ومحنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ في مسألة خلق القرآن أشهر من علم ، لقد صمد صمود الجبال الرواسي من أجل المحافظة علىٰ قدسية العلم ، لينقل الأمانة ممن سبقه إلى الأجيال القادمة .

كان ذلك في فترة المأمون ، حيث وُضع الإمام في السجن مدة ثمانية وعشرين شهراً . ولم يغير رأيه ولم يبدل موقفه ، وأدخلوا عليه أعز الناس

---

(١) أبو حنيفة لأبي زهرة : ٥١ـ٥٣ .

(٢) للتوسع يراجع : الإمام مالك لأبي زهرة : ٦٠ـ٩٥ .

عليه ليكلمه في الأمر ، وما كان منه إلا أن يردد : وكيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده عن دينه شيء »!![1] .

أجل! فكثير من العلماء الأفذاذ امتحنوا ولاقوا في سبيل العلم الشيء الكثير ، أمثال ذلك : محنة سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وجعفر الصادق ، والشافعي ، والبخاري ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية رضي الله عنهم وأرضاهم[2] .

* * *

وهكذا صبر العلماء علىٰ الفقر وشظف العيش ، وضربوا في ذلك أروع الأمثلة .

صحيح أن الفقر يعتبر في ميزان الشريعة الإسلامية خطراً على العقيدة ، لأنه يعرّض الإنسان للشك في حكمة الإله سبحانه ، ولذلك قال علماء السلف الصالح : إذا ذهب الفقر إلىٰ بلد قال له الكفر : خذني معك!! ورحم الله الشاعر حيث قال :

كم عالمٍ عالمٍ أعيتْ مذاهبهُ ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الألباب حائرةً ... وصيّر العالم النِّحرير زنديقا!!

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً على الأخلاق والسلوك ، لأنه يضطر الإنسان إلىٰ انحراف هنا وهناك ، وقد روىٰ البخاري بالسند المتصل إلىٰ

---

(١) للتوسع يراجع : تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٣٤٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي : ١٤٦ .

(٢) للتوسع يراجع : الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البدري ، وكتب التراجم والسير والطبقات ، ففيها نماذج عن حكايات العلماء وصمودهم وثباتهم وتضحياتهم في سبيل العلم .

رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ الرجل إذا غرم ـ استدان ـ حدث فكذب ، ووعد فأخلف » .

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً على تفكير الإنسان ، بحيث يشغله ذلك عن الجانب الروحي والخلقي ، ويجعله مشتت الفكر مشغول البال ، وقد روى محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالىٰ أن جارية أخبرت الإمام يوماً في مجلسه أن الدقيق نفد ، فقال لها : قاتلك الله ! لقد أضعتِ من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه !! كيف لا ؟ وأبو حنيفة هو الذي يؤكد على ذلك بقوله :

لا تستشر من ليس في بيته دقيق !! ورحم الله الشاعر حين قال :

إذا قلَّ مالُ المرء قلّ بهاؤهُ وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان دارياً أقدَّامُه خيرٌ له أم وراؤهُ !!

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً علىٰ الأسرة والمجتمع بأسره ، وذلك لأن بناء الأسرة بحاجة إلىٰ مال ، واستمرار بقاء الأسرة وتماسكها بحاجة إلى إنفاق ، وإلا لماذا ندّد الإسلام بقتل الأطفال ؟ إنه الفقر المدقع ، والذي يجعل الأب لا يعرف من أين يأتي بالأموال للإنفاق علىٰ عياله ، قال تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وهكذا فالفقر له خطر علىٰ استقرار المجتمع ، من خلال الأثر علىٰ الصحة العامة ، وسوء التغذية ، وسوء التعليم ، وسوء الإنتاج ، وما إلىٰ هنالك .

لكن الإسلام وضع برنامج عمل للقضاء علىٰ الفقر ، يتمثل في أمور فرضية كالزكاة ، وأمور طوعية كالوقف الخيري ، واعتبر أن كرامة الإنسان لا تقدّر بما يملك من أموال ، إنَّما المسألة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ [غافر : ٥٨] . وهذا الميزان الإسلامي عجزت الدنيا وأنظمتها الوضعية أن تأتي بمثله ، وستعجز إلىٰ الأبد ، لأنه الميزان الإلهي وحده[١] .

لكن أمام ذلك كله ، فقد سطر العلماء السابقون صفحات نادرة ، وهم يعانون الفقر وشظف العيش ، وقلة المفروشات والملبوسات ، ونفاد المال والنفقات ، وأهوال الغربة والترحال ، وبيع الممتلكات والأثاث ، وهم بذلك إنما يؤكدون علىٰ مسألة التضحية في سبيل العلم ، وليس في ذلك تناقض بين نظرة الإسلام للفقر وبين ما كانوا عليه ، إنما القضية هي الإيثار كله ، فكما أن بعضهم آثروا العلم علىٰ لذة النكاح ومتعتها ، كذلك آثر البعض العلم علىٰ كل أنواع الطعام وألوان الشراب وما إلىٰ هنالك ، ولعلّ فلسفتهم لذلك الأمر كانت تأتي من قناعاتهم العجيبة!! ومن ذلك ما رواه ابن الجوزي قال : ذكر عند الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ رجلاً صبوراً علىٰ الفقر في أطمار ، فقال لواحدٍ من تلاميذه : اذهب حتىٰ تأتيني بخبره ، سبحان الله ، الصبر علىٰ الفقر ، الصبر علىٰ الفقر ، ما أعدل بالصبر علىٰ الفقر شيئاً ، تدري الصبر علىٰ الفقر أي شيء هو ؟!

---

(١) للتوسع في الحديث عن هذا الميزان يراجع : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، فصل نظرات في الميزان ، للمؤلف ، ط١/ ١٩٩٥ دار المكتبي بدمشق .

أتدري إذا سألك أهلك حاجةً لا تقدر عليها ، أي شيء لك من الأجر ؟!

أسرُّ أيامي إليّ : يوم أصبح فيه وليس عندي شيء ، ما قلّ من الدنيا كان أقلَّ للحساب ، إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل ، وكان إبراهيم بن أدهم ينشد :

وما هي إلا جوعةٌ قد سددتها   وكل طعامٍ بين جنبيَّ واحد

وكان أحمد رحمه الله يقول : الغنىٰ من العافية ، والدنو من المترفين فتنة! والجلوس معهم فتنة! وإن لكل شيء كَرَماً ، وكرم القلب : الرضا عن الله تعالىٰ .

وكان يقول لبعض أصحابه : كم يعيش أحدنا ؟ خمسين سنة ؟ ستين سنة ؟ كأنك بنا قد متنا! ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمّي فسقط!![1] .

ومن ذلك قول الإمام النحوي ابن هشام (ت : ٧٦١هـ) رحمه الله تعالىٰ :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله   ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العُلا   يسيراً يعش دهراً طويلاً أخا ذلِّ

ومن ذلك قول بعضهم ـ ويقال إنه للإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ ـ :

الجوع يُدفع بالرغيف اليابس   فعلام أكثر حسرتي ووساوسي ؟!
والموت أنصف حين ساوىٰ حكمه   بين الخليفة والفقير البائس

---

(١) مناقب الإمام أحمد : ٤٤ـ٤٥ .

ومن ذلك قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ :

أمطـري لـؤلـؤاً سمـاء سـرنـد يب وفيضي آبار تكرور تبرا[1]
أنـا إن عشـت لسـت أعـدم قـوتـاً وإذا مـت لسـت أعـدم قبـرا
همتـي همـة الملـوك ونفسـي نفـسُ حُـرّ تـرىٰ المـذلـة كُفـرا
وإذا مـا قنعـت بـالقـوت عُمـري فلمـاذا أزور زيـداً وعمـرا ؟!

ومن ذلك قول واحد منهم :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فقال الصبور : يا صبر صبرا!!

وذلك العلامة القاضي الزبيدي (ت : ٩٣٠هـ) رحمه الله تعالىٰ يحدد المسألة بقوله :

قلـت للفقـر : أيـن أنـت مقيـم ؟ قـال لـي : فـي عمـائـم الفقهـاء
إن بينـــي وبينهـــم لإخـــاءً وعـزيـز علـيّ قطـع الإخـاء!!

وذلك واحد آخر من العلماء يدلي بفلسفته الخاصة فيقول :

إن الفقيـه هـو الفقيـر وإنمـا راء الفقيـر تجمّعـت أطـرافهـا

ومن النماذج الرائعة علىٰ ما ألمّ بالعلماء من سوء حال في سبيل طلبهم العلم :

قال ابن القاسم ـ تلميذ الإمام مالك ـ : أفضىٰ بمالك طلب العلم إلىٰ أن نقض سقف بيته فباع خشبه!!

ورحم الله الإمام أبو يوسف ـ صاحب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله يحدثنا عن نشأته فيقول : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه ، فقال :

---

(١) سرنديب : جزيرة في أقصى الهند ، وتكرور : اسم بلاد بأقصى جنوب المغرب .

يا بني! لا تمدّن رجلك مع أبي حنيفة ، فإن أبا حنيفة خبزه مشويّ ، وأنت تحتاج إلىٰ المعاش ، فقصّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة أبي .

فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجلسه . فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟

قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فجلست ، فلما انصرف الناس دفع إليّ صرة وقال : استمتع بهذه ، فنظرت فإذا فيها مئة درهم ، فقال لي : الزم الحلقة ، وإذا نفدت هذه فأعلمني .

فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مئة أخرى ، ثم كان يتعاهدني ، وما أعلمته بخلّة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنَّه يُخبر بنفادها حتىٰ استغنيت وتموّلت ، فلزمت مجلسه (٢٩) سنة ، حتىٰ بلغت حاجتي ، وفتح الله لي ببركته وحُسن نيته ما فتح من العلم والمال ، فأحسن الله عني مكافأته وغفر له[١] . ورحم الله الإمام الشافعي ، حيث حدث الناس عن نشأته وفقره ويتمه ، لكنه صبر علىٰ ذلك كله حتىٰ فتح الله عليه ، قال :

كنت يتيماً في حجر أمي ، فدفعتني في الكُتَّاب ، ولم يكن عندها ما تُعطي المعلم ، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام .

فلما ختمت القرآن ، دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء ، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس ، فكنت إذا رأيت عظماً يلوح ، آخذه فأكتب فيه ، فإذا امتلأ طرحته في جرّة كانت لنا قديماً . ثم قدم والٍ علىٰ اليمن ، فكلمه لي بعض القرشيين أن أصحبه ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتجمّل به ، فرهنت

---

(١) تاريخ بغداد : ١٤/ ٣٤٤ .

رداءها بستة عشر ديناراً ، فأعطتني فتجمّلت بها معه!![1] .

ورحم الله الحافظ حجاج بن الشاعر (ت : ٢٥٩هـ) ، وهو يحدثنا عن صبره في تحمّل ضيق ذات اليد من أجل نيل العلوم والمعارف ، فيقول :

جمعت لي أمي مئة رغيف ، فجعلتها في جراب وانحدرت إلى شبابة بالمدائن ، فأقمت مئة يوم ببابه ، أجيء بالرغيف فأغمسه في دجلة وآكله ، فلما نفدت خرجت!![2] .

ورحم الله إمام الظاهرية داود بن علي الأصبهاني الظاهري (ت : ٢٧٠هـ) ، وقد تحمّل في سبيل تحصيل العلوم الشيء الكثير ، لكن فلسفته الخاصة تذكر دائماً بقول القائل :

إذا سَمَتْ عين من تهواه عن ذهبٍ فالتِّبر والتُّرب في الدنيا لديك سَوَا

قال القاضي الفقيه أبو عبد الله المحاملي :

صليتُ صلاة عيد الفطر في جامع المدينة ، وقلت : أدخل علىٰ (داود بن علي) فأهنّيه ، فجئته وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هندباء ، وعصارة فيها نخالة وهو يأكل ، فهنأته وعجبت من حاله! ورأيت أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء! فخرجت من عنده ودخلت علىٰ رجل من محبّي الخير يقال له : الجرجاني ، فخرج إليّ حاسر الرأس حافي القدمين ، وقال لي : ما عنّىٰ القاضي ؟!

قلت : مهم!

قال : ما هو ؟

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/٩٨ .
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي : ٢/٥٥٠ .

قلت : في جوارك (داود بن علي) ومكانه من العلم ما تعلمه ، وأنت كثير الصلة والرغبة في الخير تغفل عنه ؟ وحدثته بما رأيت .

فقال الجرجاني : داود شرس الخلق! وجهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردّها عليّ ، وقال للغلام : بأي عين رأيتني ؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخلّتي حتىٰ بعثت لي بهذا ؟!

قال المحاملي : فعجبت وقلت للجرجاني : هات الدراهم ، فإني أحملها إليه ، فدفعها إليّ ، وقال للغلام : ائتني بكيسٍ آخر ، فوزن ألفاً أخرىٰ وقال : تلك لنا وهذه لعناية القاضي ، فأخذت له الألفين وجئت إليه ، فقرعت الباب ودخلت وجلست ساعة ، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه .

فقال : هذا جزاء من ائتمنك على سرّه ؟ أنا بأمانة العلم أدخلتك إليّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك!!

قال المحاملي : فرجعت وقد صغرت الدنيا في عيني ، وأخبرت الجرجاني فقال : إني أخرجت هذه الدراهم لله تعالىٰ فلا ترجع في مالي ، فليتولّ القاضي إخراجها في أهل البر والعفاف!![1] .

ورحم الله الحافظ (بقيّ بن مخلد القرطبي) ، فقد عاش حياة الفقر ، وباع حتىٰ بعض ثيابه ، وأكل أردأ أنواع الطعام ، وضحّى بكل شيء من أجل تحصيل العلوم ، وذات يوم وهو جالس بين طلابه أراد أن يبين لهم الطريق ، فقال : أنتم تطلبون العلم ؟ وهكذا يُطلب العلم ؟! إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شغل يقول : أمضي أسمع العلم! إني لأعرف رجلاً ـ يعني نفسه ـ تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ، لا يكون له عيش إلا من

---

(١) وفيات الأعيان : ١/١٧٦ .

ورق الكُرنب ـ السّلق ـ الذي يُلقيه الناس!

وإني لأعرف رجلاً باع سراويله غير مرة في شراء كاغد ـ ورقة الكتابة ـ حتىٰ يسوق الله إليه من حيث يُخلفها!![1] .

ورحم الله القاضي أبا علي الهاشمي (ت : ٤٢٨هـ) ، فقد رسم المنهج ووضع أنموذجاً لطلابه وللناس من بعده نفسه التي بين جنبيه :

ذكر أبو علي بن شوكة ، قال : اجتمعنا جماعة من الفقهاء ، فدخلنا علىٰ القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فقرنا وشدّة ضُرّنا!

فقال لنا : اصبروا ، فإنَّ الله سيرزقكم ويوسّع عليكم ، وأحدّثكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم :

أذكر سنة من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئاً عظيماً ، حيث بعتُ رحل داري ، ونفد جميعه ، ونقضتُ الطبقة الوسطىٰ من داري ، وبعت أخشابها ، وتقوّت بثمنها ، وقعدت في البيت فلم أخرج ، وبقيت سنة!

فلما كان بعد سنةٍ قالت لي المرأة : الباب يُدق ، فقلت لها : افتحي الباب ، ففعلت ، فدخل رجل فسلّم عليّ ، فلما رأىٰ حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس من شدة تصيبك إلا سوف تمضي وسوف تُكشف كشفا
لا يضق ذرعك الرحيب فإن النا ر يعلو لهيبها ثم تطفا
قد رأينا من كان أشفىٰ على الهُلـ ـك فوافت نجاته حين أشفى

ثم خرج عني ولم يقعد ، فتفاءلت بقوله ، فلم يخرج اليوم عني حتىٰ جاءني رسول (القادر بالله) ، ومعه ثياب ودنانير ، وبغلة بمركب ، ثم قال لي : أجِبْ أمير المؤمنين ، وسلّم إليّ الدنانير والثياب والبغلة ،

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ٧/ ٨٣ .

فغيّرت عن حالي ، ودخلت الحمّام ، وصرت إلى (القادر بالله) ، فردّ إليّ قضاء الكوفة وأعمالها ، وأثرىٰ حالي!![1] .

ورحم الله الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت : ٥٦١هـ) ، والذي حدث عن نفسه حديثاً فيه الدليل الدامغ علىٰ ما لاقاه العلماء في سبيل تحصيل العلم ، ومختصره :

. . . وكنت أقتات بخرنوب الشوك ، وقمامة البقل وورق الخسّ من جانب النهر والشط ، وبلغت الضائقة في غلاءٍ نزل ببغداد إلى أن بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً ، بل كنت أتتبّع المنبوذات أطعمُها!

فخرجت يوماً من شدة الجوع إلى الشط ، لعلي أجد ورق الخس أو البقل ، أو غير ذلك ، فأتقوّت به! فما ذهبت إلىٰ موضع إلا وغيري قد سبقني إليه! وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حُبّاً .

فرجعت أمشي وسط البلد فما أُدرك منبوذاً إلا وقد سُبقتُ إليه ، حتىٰ وصلت إلىٰ مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد ، وقد أجهدني الضعف ، وعجزت عن التماسك ، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه ، وقد كدت أصافح الموت! إذ دخل شاب أعجمي ، ومعه خبز صافي وشواء ، وجلس يأكل ، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ، حتىٰ أنكرت ذلك علىٰ نفسي ، فقلت : ما هذا ؟!

وقلت : ما ها هنا إلا الله أو ما قضاه من الموت!

إذ التفت إليّ العجمي فرآني فقال : بسم الله يا أخي ، فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها ، فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً ، فأخذ يسألني : ما شغلك ؟ ومن أين أنت ؟ وبمن تُعرف ؟

---

(١) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلىٰ : ٢/ ١٨٥ .

فقلت : أنا متفقّه من جيلان ، فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر ، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ؟

فقلت : أنا هو .

فاضطرب وتغيّر وجهه وقال : والله لقد وصلتُ إلىٰ بغداد ومعي بقيّة نفقة لي ، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ، ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي ، وقد حلَّت لي الميتة ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبز والشواء فكُل طيباً ، فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي ! !

فقلت له : وما ذاك ؟ فقال : أمك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير ، فاشتريت منها للاضطرار فأنا معتذر إليك ، فسكنته وطيبت نفسه ، ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة ، فقبله وانصرف ! ![1] .

ورحم الله الإمام ابن الجوزي ، والذي يتحدث عما ناله في سبيل تحصيل العلم ، فقال : . . . ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ، ألقىٰ من الشدائد ما هو عندي أحلىٰ من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو :

ومن تكن العلياء همّة نفسه   فكلّ الذي يلقاه فيها محبّبُ

كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفةً يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد علىٰ نهر عيسى ـ في بغداد ـ فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربت عليها ، وعين همتي لا ترىٰ إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرفت بكثرة سماعي لحديث

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي : ١/ ٢٩٨ .

الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم .

ثم قال : ولم أقنع بفنّ واحد ، بل كنت أسمع الفقه والحديث ، وأتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره ، وأتخيّر الفضائل .

ولقد كنت أدور علىٰ المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق ، وكنت أُصبح وليس لي مأكل! وأمسي وليس لي مأكل! ما أذلّني الله لمخلوقٍ قط ، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح ! ![1] .

* * *

أجل! لقد لاقى العلماء في سبيل الحصول علىٰ العلوم مصاعب ومتاعب كثيرة ، حتىٰ إنهم تحمّلوا بيع بعض الثياب ، وتحمّلوا نفاد المال ، وتحمّلوا الغربة وما فيها من كرب ، بل باعوا كل ما يملكون ، وبذلوا المال كله في هذا السبيل ، وفي كتب التراجم والسير ما فيه العجب العجاب ، من ذلك :

ما رواه الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عما لاقاه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ قال :

. . . وسُرقت ثيابه وهو باليمن ، فجلس في بيته وردَّ عليه الباب ، وفقده أصحابه ، فجاؤوا إليه فسألوه فأخبرهم ، فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ، ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ، ليكتب لهم به ـ أي أجرة نسخه الكتب لهم ـ فكتب لهم بالأجر ! ![2] .

ورحم الله الإمام البخاري ، والذي روى عنه تلميذه قصة عجيبة ، قال عمر بن حفص الأشقر :

---

(١) صيد الخاطر : ٢/ ٣٣٠ .

(٢) البداية والنهاية : ١٠/ ٣٢٩ .

إنهم فقدوا البخاري أياماً من كتابة الحديث بالبصرة ، قال : فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عُريان ، وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث!![1] .

ورحم الله المقرئ المحدث الفقيه : أبا الحسن علي اليزدي (ت : ٥٥١هـ) ، والذي جاء في ترجمة حياته :

كان دائم البشر ، سخيّ الطبع بما يملكه ، قانعاً بما هو فيه ، متواضعاً ، عاملاً بعلمه ، كثير المحفوظ ، من الفقهاء المتعبدين ، وصنّف الكثير ، وزادت مصنفاته علىٰ خمسين مصنفاً في أنواع العلوم ، حديثاً وفقهاً وزهداً .

قال السمعاني : وكان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت! وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت!

سمعته يقول وقد دخلت عليه داره مع علي بن الحسين الغرنوي الواعظ ، مُسلّماً عليه ، فوجدناه عُرياناً متأزّراً بمئزر ، فاعتذر من العُري ، وقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قومٌ إذا غسلوا ثياب جَمَالهم لبسوا البيوت إلىٰ فراغ الغاسل!![2]

أجل!

فلن يصل الإنسان إلى مرحلة تحصيل العلوم إلا إذا بذل في سبيل ذلك أغلىٰ ما يملك ، كما قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالىٰ :

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/ ٢٣ .

(٢) طبقات الشافعية للإمام السبكي : ٧/ ٢١١ .

مــن لــم يــر العلــم أغلــىٰ   مــن كــل شــيء يُصــابُ
فليــس يُفلــح حتــىٰ   يُحثــىٰ عليــه التــرابُ

حتىٰ المال ، الذي يدافع عنه الإنسان إلىٰ درجة عجيبة ، مصداق ما وصف الله الإنسان به : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨] ، فالتخلي عنه أمر صعب وشاق ، والتضحية به نوع من الفداء حقاً ، لكن العلماء ضربوا أروع الأمثلة في التضحية بالمال في سبيل الحصول على ألوان العلوم ، ومن الأمثلة على ذلك :

ما روي عن شيخ البخاري (محمد بن سلام البكندي) (ت : ٢٢٥هـ) رحمه الله تعالىٰ ، أنه قال : أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفاً ، وأنفقت في نشره أربعين ألفاً ! ![1] .

ورحم الله تلميذ الإمام مالك (ابن القاسم) ، والذي روي عنه قوله :

خرجت إلىٰ الحجاز اثنتي عشرة مرة ، أنفقت في كل مرة ألف دينار ! ![2] .

ورحم الله الإمام يحيىٰ بن معين (ت : ٢٣٣هـ) ، والذي خلّف له والده : ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفقه كله علىٰ الحديث ، حتىٰ لم يبق له نعل يلبسه ! ![3] .

ورحم الله اللغوي (ابن الكوفي) (ت : ٣٤٨هـ) ، والذي جاء في ترجمته :

عالم ، صحيح الخط ، راوية ، جمّاعة للكتب ، صادق الرواية ،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٠/ ٦٣٠ .
(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ٢٤٨ .
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ١١/ ٢٨٢ .

منقّر بحّاث ، من أصحاب أبي العباس ثعلب المختصين به .

كان أبوه من أهل ذوي اليسار من أهل الكوفة ، واشتغل ولده هذا بطلب العلم من يومه ، ولما مات أبوه خلّف له زائداً عن خمسين ألف دينار ، فصرفها كلها في طلب العلم ، وتحصيل الكتب اشتراءً واستنساخاً وكتابةً ، وصرف من ذلك جزءاً صالحاً لفقراء طلبة العلم ، وكان منزله مغشياً منهم ، ونفقاته عليهم واسعة . فأما ما كتبه ففي غاية الجودة والإتقان ، والموجود منها في زماننا هذا ، إذا تُؤمّل دلّ علىٰ تيقظ وبحث ورغبة ، وقد كانت لكثرتها يُعيّنُ لكل نوع منها موضعاً مخصوصاً من خزائنه ، ويكتبه علىٰ أول الكتاب ليجده إذا طلبه ، ويعيده إلىٰ موضعه المعلوم إذا عُني عنه ، رحمه الله ، فما كان أسنىٰ أفعاله ! ![1] .

ورحم الله الإمام المقرئ الفقيه : أبا الوفاء بن عقيل الحنبلي (ت : ٥١٣هـ) ، والذي كان له مع العلم أشياء عجيبة ، فلقد وهب نفسه وماله ، واستغل كل لحظة في سبيل تحصيل العلم ، وضحىٰ بكل شيء في ذلك :

قال عن نفسه : . . . لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتىٰ إذا تعطّل لساني عن مذاكرةٍ ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي ، وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي علىٰ العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة !

وأنا أقصّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتىٰ أختار سفّ الكعك وتحسّيه بالماء علىٰ الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفراً

---

(١) إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة للقفطي : ٢/ ٣٠٥ .

علىٰ مطالعة ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه ، وإن أجل تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص ، فالتكاليف كثيرة ، والأوقات خاطفة .

وقال أحد أهم تلامذته الشيخ ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : كان الإمام ابن عقيل دائم الاشتغال بالعلم ، وكان له الخاطر العاطر ، والبحث عن الغوامض والدقائق ، وجعل كتابه المسمّى بـ (الفنون) مناطاً لخواطره وواقعاته .

وقال الحافظ ابن رجب : وللإمام ابن عقيل تصانيف كثيرة في أنواع العلوم ، نحو العشرين تصنيفاً ، وأكبر تصانيفه كتاب (الفنون) وهو كتاب كبير جداً ، فيه فوائد كثيرة جليلة ، في الوعظ ، والتفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والتاريخ ، والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له ، وخواطره ونتائج فكره ، قيّدها فيه .

وقال الحافظ الذهبي : لم يُصنّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب ، حدثني من رأىٰ منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة !

وقال الحافظ ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانمئة مجلد ! ![1] .

ورحم الله العلامة ابن الجوزي وهو يوصي ولده ، ويحدثه عن نشأته وماذا حدث له :

واعلم يا بنيّ ، أن أبي كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعت الدارين وأنفقت ثمنها

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب : ١/ ١٤٣ـ١٤٥ .

في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال ، وما ذلّ أبوك في طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف في البلدان من الوعاظ ، ولا بعث رقعة إلىٰ أحدٍ يطلب منه قط ، وأموره تجري علىٰ السداد : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

فاجتهد يا بني في صيانة عرضك من التعرّض لطلب الدنيا والذلّ لأهلها ، واقنع تُعزّ ، فقد قيل : من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد .

ولقد كنت أصبح وليس لي مأكل ، وأمسي وليس لي مأكل ، ما أذلّني الله تعالىٰ لمخلوق قط ، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي . . !![1] .

* * *

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي : ١٣٤٧/٤ ، ورسالة : لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي : ١٧ .

الباب الرابع

نتائج تضحيات العلماء
في سبيل العلم!!

الفصل الأول

نتائج تضحيات العلماء في الدنيا

ما دام أن غالبية العلماء يضحّون بالغالي والنفيس لا لهدف دنيوي إنما من أجل الله تعالىٰ .

فإنَّ الله سبحانه لن يضيع ذلك أبداً ، ففي الدنيا يفتح الله عليهم أبواب التوفيق والبركات ، ويلهم الآخرين أن يحترموهم ويقدّروهم ، ولنضرب أمثلة على ذلك :

روى الإمام ابن الجوزي أن الوزير عيسىٰ بن علي بن عيسىٰ كان يقول : ليت ابن أبي داود ـ وهو أحد العلماء الكبار (ت : ٣١٦هـ) ـ إذا مضينا إلىٰ داره يأذن لنا في الدخول ! ![١] .

وروىٰ ابن العبري أن الملك الناصر داود صاحب الكرك (ت : ٦٥٦هـ) كان يتردد إلىٰ شمس الدين الخسرو شاهي (ت : ٦٠٦هـ) يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ أبي علي بن سينا ، وكان إذا وصل إلىٰ رأس المحلة التي بها نزل الخسرو شاهي وأومأ إلىٰ من معه من الحشم والمماليك ليقفوا مكانهم ويترجّل ويأخذ كتابه تحت إبطه ملتفاً بمنديل ، ويجيء إلىٰ باب الحكم ويقرعه ويفتح له ويدخل ويقرأ ويسأل عما خطر له ثم يقوم ولم يمكن الشيخ من القيام له ! ![٢] .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ٦/٢١٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول : ٣٠٤ـ٣٠٥ .

وروىٰ ابن أبي أصيبعة أن ثابت بن قرة (ت : ٢٨٨هـ) كان له احترام خاص عند الخليفة العباسي المعتضد ، ففي يوم من الأيام كان المعتضد يمشي في بستان قصره مع ثابت ، وبعد قليل التفت المعتضد إلىٰ ثابت وقال : يا أبا الحسن ، لقد سهوت ووضعت يدي علىٰ يدك ، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإنَّ العلماء يعلون ولا يُعلون!![1] .

وروىٰ ياقوت الحموي أن محمد بن عبد الله بن طاهر أوكل مسألة تعليم أبنائه إلىٰ إمام النحو واللغة أحمد بن يسار (ت : ٩٠٣هـ) ، فأكرمه إكراماً لا مثيل له :

ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه علىٰ مائدته ، وفرض له أن يأخذ يومياً خبزاً فاخراً ولحماً كثيراً حين انصرافه إلىٰ منزله ، وجعل له ألف درهم شهرياً!![2] .

وروىٰ ياقوت الحموي قول الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) : أهديتُ كتاب الحيوان إلىٰ محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلىٰ ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلىٰ إبراهيم بن العباس فأعطاني خمسة آلاف دينار!![3] .

وروىٰ جمال الدين القفطي أن عالم البصريات الحسن بن الهيثم (ت : ٤٣٠هـ) قال ذات يوم : لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عالٍ وهو في طرف الإقليم المصري .

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٢٢٤ .
(٢) معجم الأدباء : ٥/ ١٢٥ .
(٣) معجم الأدباء : ١٦/ ١٠٦ .

فازداد الحاكم بأمر الله (ت : ٣٧٦هـ) إليه شوقاً وسيَّر إليه جملة من مال وأرغبه في الحضور ، فسافر نحو مصر ، ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا بقرية علىٰ باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق ، وأمر بإنزاله وإكرامه[1] .

وروىٰ الخطيب البغدادي أن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد طلب إحضار إمام اللغة والأدب : الفرّاء (ت : ٢٠٧هـ) وطلب منه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه حتىٰ لا يتعلق قلبه ، ولا تتشرف نفسه إلىٰ شيء حتىٰ إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الورّاقين وألزمه الأمناء والمثقفين ، فكان يملي والورّاقون يكتبون حتىٰ صنف الحدود في سنتين ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلىٰ الناس وابتدأ علىٰ كتاب المعاني . . .[2] .

بل كان كثير من الخلفاء والوزراء يحضرون مجالس العلماء ، وذلك بغية الاستفادة من علومهم ومعارفهم .

روىٰ الخطيب البغدادي قائلاً : لقد حرز علىٰ من حضر مجلس سليمان بن حرب الواشجي البصري (ت : ٢٢٤هـ) أربعين ألف رجل ، وكان مجلسه عند قصر المأمون ، فبنىٰ له شبه منبر ، فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد ، والمأمون فوق قصره قد فتح باب القصر ، وقد أرسل ستر يشفّ وهو خلفه يكتب ما يملي ! ![3] .

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٤ـ١١٥ .

(٢) تاريخ بغداد : ١٤/ ١٥٠ .

(٣) تاريخ بغداد : ٩/ ٣٣ .

وروىٰ المقريزي أن الملك العادل أبا بكر بن أيوب (ت : ٦٣٧هـ) كان يحب العلم وأهله ويؤثر مجالسهم ، وكان شغفاً بسماع الحديث النبوي ، وحدث وبنىٰ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وكان يناظر العلماء ويمتحنهم بمسائل غريبة ، من فقه ونحو ، فمن أجاب عنها حظي عنده ، وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدد من أهل العلم علىٰ أسرّة بجانب سريره ، ليسامروه ، وكان للعلم والأدب عنده إنفاق ، فقصده الناس لذلك ، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا[1] .

وكرّم الحكام العلماء ، وذلك عن طريق تسمية المدارس والشوارع بأسمائهم ، مثال ذلك : مدرسة ابن الجوزي ، مدرسة ابن رشيق .

وشارك الحكام العلماء في أفراحهم ومصائبهم ، مثال ذلك خروج الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ الميدان لحضور صلاة الجنازة ، وذلك عند وفاة ابن عساكر المؤرخ والعالم الكبير (ت : ٥٧١هـ) ! ![2] .

أجل !

فالعلم له أفضلية علىٰ المال ، وهذا قرار الله تعالىٰ في القرآن الكريم : وذلك عندما فهّم الله نبيه سليمان مسألة امتنّ بها عليه وقال : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

لكن عندما أعطاه الملك الواسع ، لم يمنّ عليه ، بل قال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩] .

ورضي الله عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس عندما

---

(١) خطط المقريزي : ٢/ ٣٧٧ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ١٣/ ٧٥ .

شرح قيمة العلم ومكانته بقوله :

العلم أفضل من المال ، لأن العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة ، ولأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، ولأن العلم لا يعطيه الله إلا لمن يحبه ، والمال يعطيه من يحب ومن لا يحب ، ولأن العلم لا ينقص بالبذل والإنفاق ، والمال ينقص بهما ، ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذِكْرُه ، والعالم إذا مات فذكره باق .

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم   علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّء
وقدْر كل امرئٍ ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الأدب مع العلماء ، من ذلك :

كان الشيخ شمس الدين الديروطي إذا مرّ علىٰ فقيه ، ينزل عن دابته ويسوقها أمامه ، ويقبّل يده ، ثم لا يركب حتىٰ يبعد عنه جداً ويتوارىٰ عنه بجدار أو نحوه ، مع أنه بلغ في العلم الغاية ، وشرح (المنهاج) وغيره!![1] .

وجاء سهل بن عبد الله التستري أبا داود السجستاني ـ صاحب السنن ـ فقيل له :

يا أبا داود ، هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائراً .

قال : فرحّب به وأجلسه .

فقال : يا أبا داود لي إليك حاجة .

قال : وما هي ؟

قال : حتىٰ تقول قضيتها مع الإمكان .

---

(١) الأنوار في صحبة الأخيار للإمام الشعراني : ١١٢ .

قال : قد قضيتها مع الإمكان .

قال : أخرج لي لسانك الذي حدَّثت به عن رسول الله ﷺ حتىٰ أقبِّله .

قال : فأخرج له لسانه ، فقبله!![1] .

حتىٰ الخلفاء والأمراء والملوك كانوا يعرفون الفضل لأصحاب العلم ، فيبادرون إلىٰ خدمتهم وإجلالهم .

روىٰ الإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ أن أبا معاوية الضرير قال :

أكلت مع هارون الرشيد يوماً ، ثم صبَّ علىٰ يدي رجلٌ لا أعرفه .

ثم قال الرشيد : تدري من يصبُّ عليك ؟

قلت : لا .

قال : أنا ، إجلالاً للعلم!![2] .

وروىٰ الإمام الشيرازي أن الشعبي قال :

أمسك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال :

تمسك بركابي وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ؟

قال : إنا هكذا نصنع بالعلماء!![3] .

وروىٰ الإمام السيوطي أن أحمد بن حمدون قال :

دخل هارون بن زياد مؤدب الواثق إليه ، فأكرمه إلىٰ الغاية .

فقيل له : من هذا يا أمير المؤمنين ، الذي فعلت به هذا الفعل ؟

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٤٠٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٢٨٤ .
(٣) طبقات الفقهاء : ٤٦ .

قال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله[١] .

وروىٰ ابن خلكان قصة فيها الدليل الواضح علىٰ قدر العالم في الدنيا ، والتي تعلو علىٰ كل قيمة وقدر ، أوليس الله تعالىٰ هو الذي قرر ذلك في القرآن الكريم : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وفي ذلك عبرة للذين يتكالبون علىٰ حطام الدنيا وما فيها من مناصب وأموال ! !

كان المأمون ـ الخليفة العباسي ـ قد وكّل الفرّاء يلقن ابنيه النحو ، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلىٰ بعض حوائجه ، فابتدرا إلىٰ نعل الفرّاء يقدّمانه له ، فتنازعا أيهما يقدّمه ، فاصطلحا علىٰ أن يقدّم كل واحدٍ منهما فرداً ، فقدماها ، وكان المأمون له علىٰ كل شيء خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجّه إلىٰ الفراء ، فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال : من أعزّ الناس ؟

قال : من أعزّه الله ، فجعله أميراً للمؤمنين .

قال : بل من إذا نهض تقاتل علىٰ تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين حتىٰ رضي كل واحد أن يقدّم له فرداً!

قال : يا أمير المؤمنين ، لقد أردتُ منعهما عن ذلك ، ولكن خشيتُ أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها ، وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ركابيهما ، حين خرجا من عنده ، فقال له بعض من حضر : أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٣٤٤ـ٣٤٥ .

فقال له : اسكت يا جاهل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل!

فقال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك ، لأوجعتك لوماً وعتباً ، وألزمتك ذنباً . وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما ، وبيّن من جوهرهما ، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاثة :

عن تواضعه لسلطانه ، ووالده ، ومعلّمه العلم .

وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم علىٰ حسن أدبك لهما!!(١) .

حتىٰ إن الأمراء والخلفاء يعرفون هذه المكانة الرفيعة التي حاز عليها العلماء في الدنيا والآخرة ، لذلك كانوا يتمنون أن يكون لهم ذلك!!

روىٰ ابن خلكان أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : لأن يكون لي مجلس من عبيد الله ـ أحد الفقهاء السبعة ـ أحبَّ إليَّ من الدنيا .

وقال : والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال .

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تقول هذا مع تحرّيك وشدّة تحفظك ؟

قال : أين يُذهب بكم ؟ والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته علىٰ بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفٍ ، إن في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب(٢) .

وروىٰ ابن خلكان قال : وقفت في كتاب (النصوص علىٰ مراتب أهل

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/ ١٧٨ .
(٢) وفيات الأعيان : ٣/ ١١٦ .

الخصوص) عن أشعث بن شعبة المصيصي ، قال :

قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ، وقد تقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من بُرج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟

قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرقة ، يقال له : عبد الله بن المبارك .

فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان ! ![1] .

وروىٰ الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ قال :

روينا بأسانيد متعددة عن مقاتل بن صالح الخراساني قال :

دخلت علىٰ حماد بن سلمة رضي الله عنه ، فإذا ليس في البيت إلا حصير ، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجُراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ فيها ! فبينا أنا عنده جالس إذ دقّ داق الباب ، فقال :

يا صبية ، اخرجي ، فانظري من هذا ؟

قالت : هذا رسول محمد بن سليمان .

قال : قولي له : يدخل وحده .

فدخل ، فسلّم ، وناوله كتاباً .

فقال : اقرأهُ .

فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن سليمان إلىٰ حماد بن سلمة ، أما بعد ، فصبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/ ٣٤ .

طاعته ، وقعت مسألة ، فإنا نسألك عنها .

فقال : يا صبية ، هلمّي بالدواة ، ثم قال : اكتب في ظهر الكتاب :

أما بعد ، وأنت صبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته ، أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً ، فإن وقعت مسألة ، فائتنا ، فتسألنا عما بدا لك ، وإن أتيتني ، فلا تأتني إلا وحدك ، ولا تأتني بخيلك ورجلك ، فلا أنصحك ، ولا أنصح نفسي ، والسلام .

فبينا أنا عنده جالس ، إذ دقّ داقٌّ الباب ، فقال :

يا صبية ، اخرجي ، فانظري من هذا ؟

فقالت : محمد بن سليمان .

قال : قولي له يدخل وحده ، قال : فدخل ، فسلّم ، ثم جلس بين يديه ، فقال : ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعباً ؟

فقال حماد : سمعت ثابتاً البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العالم إذا أراد بعلمه وجه الله تعالىٰ ، هابه كل شيء ، وإذا أراد أن يكثّر به الكنوز ، هاب من كل شيء » .

فقال : ما تقول ـ يرحمك الله ـ في رجل له ابنان ، هو عن أحدهما أرضىٰ ، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟

فقال : لا ؟ ويرحمك الله ، فإني سمعت ثابتاً البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إنَّ الله عز وجل إذا أراد أن يعذّب عبداً بماله ، وفّقه عند موته لوصيةٍ جائرةٍ » .

قال : فحاجةٌ .

قال : هات! ما لم تكن رزيّة في دين .

قال : أربعين ألف درهم تأخذها ، فتستعين بها علىٰ ما أنت عليه .

قال : اردها علىٰ من ظلمته بها .

قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته .

قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني ، زوىٰ الله عنك أوزارك .

قال : فغير هذا .

قال : هات ، ما لم يكن رزية في دين الله .

قال : تأخذها فتقسمها .

قال : فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها : إنه لم يعدل في قسمتها ، فيأثم! ازوها عني زوىٰ الله عنك أوزارك! ![1] .

أجل!

في الدنيا يرفع الله مكانة صاحب العلم ، حيث يرتفع بارتفاعه عن حطام الدنيا ، لأن هدفه شيء آخر ، وهو رضوان الله تعالىٰ وخدمة عباده ، لذلك فقد نرىٰ في عالمنا أناساً مِن المتعلمين لا يجد الواحد منهم عشاء ليلته ، ومع ذلك تراه يعيش العزة والرفعة ، لا يأبه من شيء ، ولا يحزن علىٰ شيء ، وكأن حاله كما كان صحابة رسول الله ﷺ ، عندما كان الواحد يردد أمام الأشهاد : إنا نعيش في سعادة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف!!

لأن مصدر عزته من عزة الله ، ومصدر قوته من قوة الله ، ومصدر عدم خوفه من أحد أنه معلّق القلب بالواحد الأحد سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) بستان العارفين للإمام النووي : ٩٥ـ٩٦ .

فهو موقن تماماً بأن الذي شقّ موضع الفم متكفّل بأن يملأ المعدة ، وأن الذي ركّب الرأس علىٰ الجسد هو الوحيد القادر علىٰ أن ينهي الحياة!!

لذلك فلا حزن لديه علىٰ ما فات ، ولا خوف مما سيأتي ، إنما القضية هي التسليم لله :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] .

نسأل الله أن يلهمنا الإِخلاص في القول والعمل إِنه على ما يشاء قدير .

* * *

الفصل الثاني

النتائج الأخروية لتضحيات العلماء

رسمت الشريعة الإسلامية خطاً واضحاً للتفاضل بين الناس ، بحيث :

لا النسب ، ولا المال ، ولا القوة والجاه ، ولا المظهر والشارات ، ليست هذه أسس المفاضلة ، إنما التفاضل بشيء واحد هو العلم ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ٩] .

واعتبرت الشريعة مسألة العلم لها أهمية كبيرة ، حتىٰ أكثر من نوافل العبادة ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ :

« تعلّموا العلم ، فإنَّ تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والأنيس في الوحشة ، والصاحب في الوحدة ، والمحدّث في الخلوة ، والدليل علىٰ السرّاء والضراء ، والسلاح علىٰ الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، والقرب عند الغرباء ، ويرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الجنة قادة » .

والسبب في ذلك أن العلم يؤدي إلىٰ التفكر في مخلوقات الله ، وهذه نتيجتها الخشية لله تعالىٰ ، كما قال الإمام علي رضي الله عنه :

. . انظر إلىٰ النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنالُ

بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفِكر ، كيف دبّت علىٰ أرضها ، وصُبَّت علىٰ رزقها ، تنقل الحبة إلىٰ جحرها ، وتُعدُّها في مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يغفلها المنّان ، ولا يحرمها الدّيان ، ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسُفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالىٰ الذي أقامها علىٰ قوائمها ، وبناها علىٰ دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يُعنه علىٰ خلقها قادر . . [1] .

ورضي الله عن أبي ذر عندما قال : لبابٌ يتعلمه الرجل أحبّ إليّ من ألف ركعة تطوعاً ، ولقد سمعت النبي ﷺ يقول :

« إذا جاء الموت لطالب العلم وهو علىٰ هذه الحالة مات وهو شهيد »[2] .

ورضي الله عن عثمان بن عفان عندما قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

أجل !

أي مكانة سامية في الآخرة كتلك المكانة التي يحصّلها العلماء ؟

إنَّها الشفاعة بعد شفاعة النبيين عليهم الصلاة والسلام ، والشفاعة درجة عالية جداً ، لا ينالها إلا المصطفون الأخيار .

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يراجع كتاب : تفكُّر ساعة (حقيقة التفكر في القرآن والسنة) ، للمؤلف .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري : ١/ ٦١ .

حتىٰ إنَّ درجة العلماء أفضل من درجة الشهداء! كيف ذلك ؟ والشهداء هم الذين ضحوا بأرواحهم ، وانطلقوا نحو الموت بعد أن باعوا كل شيء في الدنيا!

لعلّ سرّ المسألة ـ والله العالم ـ أن الشهيد يبيع نفسه مرة واحدة ، أما العالم فإنَّه يبيعها كثيراً وكثيراً ، من حيث إنَّه يضحي بماله لشراء كتبه ونحو ذلك ، ويضحي بوقته من أجل التعلم والتعليم ، ويضحي بمتع الدنيا وزخرفها ، ويضحي حتىٰ بعلاقاته الاجتماعية ، لأن العلم إن لم تعطه كلك لم يعطك بعضه . كذلك ، فالشهيد قد لا ينتفع منه إلا القليل ، لأنه لا يملك إلا نفساً واحدة ، يضحي بها ، أما العالم فإن الكثيرين سيستفيدون من علومه ، في حال حياته وبعد مماته ، وهذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « للأنبياء علىٰ العلماء فضل درجتين ، وللعلماء علىٰ الشهداء فضل درجة » .

ومثله ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء » .

وعلّق أبو الدرداء علىٰ هذا الحديث النبوي الشريف بقوله : من رأىٰ الغدوّ والرواح إلىٰ العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه .

ورحم الله العلامة ابن عبد البر (ت : ٤٦٣هـ) عنما قال : أنشدني بعض شيوخي :

أهلاً وسهلاً بالذين أحبّهم وأودّهم في الله ذي الآلاء
أهلاً بقوم صالحين ذوي تقىٰ غرّ الوجوه وزين كل ملاء
يسعون في طلب الحديث بعفة وتوقر وسكينة وحياء
لهم المهابة والجلالة والنهىٰ وفضائل جلّت عن الإحصاء

ومداد ما تجري به أقلامهم أزكىٰ وأفضل من دم الشهداء
يا طالبي علم النبي محمدٍ ما أنتم وسواكم بسواء[1]

ثم ألا يكفي العلماء من قدر ومكانة أنهم ورثة الأنبياء ؟!

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول :

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلىٰ الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وزاد في رواية أخرىٰ :

« . . ومَوت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » .

والمسألة ليست بالكم ، إنما هي بالكيف!!

أي أن الله لا يحاسب الناس علىٰ كمية العلوم التي حصلوها ، إنما المسألة أن تعقد العزم والنية لله ، وأن تنطلق في هذا السبيل ، فإن كتب الله لك ذلك حصّلت الأجر كله ، وإلاّ إن مُنعت لسبب أو آخر ، فإن الله يكتب لك الأجر أيضاً ، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من طلب علماً فأدركه ، كتب الله عز وجل له كفلين من الأجر ، ومن طلب علماً فلم يدركه كان له كفلٌ من الأجر » .

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/ ٣٦ـ٥٩ .

والرسول ﷺ وهو الهادي إلىٰ صراط الله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٥٢-٥٣] .

حدد المنهج الذي يسير عليه الناس ـ وهو منهج العلم ـ ليصلوا إلىٰ جنة الله ورضوانه ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل ؟

قال : « العلم بالله عز وجل » .

قال : يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل ؟

قال : « العلم بالله » .

قال يا رسول الله : أسألك عن العمل وتخبرني عن العلم ؟

فقال رسول الله : « إن قليل العمل ينفع مع العلم ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل » .

حتى بعد موت الإنسان ، فإن الله يكتب له حسنات بسبب انتفاع الناس بعلمه وعملهم به ، فعن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي قال :

بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى ، فتشيل حسناته ، فإذا أيس وظن أنها النار ، جاء شيء مثل السحاب حتىٰ يقع في حسناته فتشيل سيئاته ، قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟

فيقول : لا ، فيقال : هذا ما علّمت الناس من الخير ، فعمل به من بعدك !!

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يبعث الله العباد يوم القيامة ، ثم يميز العلماء ، ثم يقول : يا معشر العلماء ! إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » .

ورضي الله عن علي بن أبي طالب عندما أنشد شعراً ، جاء فيه :

الناس في جهة التمثيل أكفاء | أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفسٍ وأرواح مشاكلة | وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ | يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ | علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه | وللرجال علىٰ الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله | والجاهلون لأهل العلم أعداء

ورحم الله سابق البربري عندما قال :

موت التقي حياة لا انقطاع لها | قد مات قوم وهم في الناس أحياء

أما في القبر ، حيث لا يدخل مع الإنسان صاحب ولا محام للدفاع عنه ، ولا مال للرشوة وما إلى هنالك ، ذلك لأن جمارك القبر التي أوقفها الله علىٰ بوابات القبور ترفع لافتة مكتوباً عليها : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

هناك لا ينفع إلا العلم ، مصداق ذلك ما رواه كعب من أن الله أوحىٰ إلىٰ نبيه موسىٰ عليه السلام : « تعلّم الخير وعلّمه الناس ، فإني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتىٰ لا يستوحشوا لمكانهم » .

ورحم الله القائل :

رأيت العلم صاحبه شريف | وإن ولدتْه آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن | يعظِّم قدره القوم الكرام
ويتّبعونه في كل أمر | كراعي الضأن تتبعه السوام
ويُحمل قوله في كل أفق | ومن يك عالماً فهو الإمام
فلولا العلم ما سعدتْ نفوس | ولا عُرف الحلال ولا الحرام

فبالعلم النجاةُ من المخازي | وبالجهل المذلة والرَّغام
هو الهادي الدليل إلىٰ المعالي | ومصباح يضيء به الظلام
كذاك عن الرسول أتىٰ عليه | من الله التحية والسلام

إذاً :

بعد انتقال الإنسان إلى الدار الآخرة ، ينقطع العمل ، ولا ينفعه من كل ما خلّف إلا ثلاثة أمور حددها النبي ﷺ بقوله :

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

فإذا ورَّث مكتبة ، أو كتب كتاباً ، أو علّم طلاباً في حياته ، أو بنىٰ مركزاً ثقافياً أو مدرسة وما إلى هنالك ، ثم مات ، فإنَّ الله تعالىٰ يكتب أجر ذلك في صحائفه ، ولعلّ هذا معنى قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ [يس : ١٢] .

فليست آثار الإنسان التي يستفيد منها بعد موته : سيارات فاخرة ، أو بيوت ضخمة فارهة ، أو أرصدة في بنوك عربية أو أجنبية ، فهذا مصيره للورثة ، وقد يُصرف ثمنه في ما لا يرضي الله عز وجل ! !

إنما الآثار التي تُكتب حسناتها له بعد موته هي الأمور التي تتعلق بنشر العلم ، وهذا ما نراه في واقعنا المعاش .

مدارس بُنيت منذ العهد الأموي والعباسي ، حتى الآن يستفيد منها طلبة العلم ، فيتعلمون فيها شتى أنواع العلوم ، ويتخرّج في كل عام علماء في شتى العلوم ، لينشروا النور والعلم في أصقاع المعمورة ، وفي بلاد الشام ما زالت بعض هذه المدارس حتىٰ يومنا هذا .

تُرىٰ كم استفاد منها أناس عبر هذه القرون ؟ ثم كم نقلوا من خلالها العلوم إلىٰ أنحاء المعمورة ؟

ترىٰ فيها العربي إلىٰ جانب المسلم الباكستاني والتركي والأفغاني والصيني والروسي و. . . ، عندئذٍ تدرك ماذا يعني قوله تعالىٰ : ﴿وآثارهم﴾ .

بينما مات الأغنياء كما يموت الفقراء ، فماذا استفادوا من الأموال التي كانوا يملكونها ؟ تقاسمها الورثة ، وأدرج الأغنياء في القبور ، وكأن شيئاً لم يكن .

من هنا نفهم سرّ تركيز الشريعة علىٰ تعلّم العلم وتعليمه : حيث درجة الشفاعة للعلماء ، وحيث وراثة العلماء للأنبياء ، وحيث إن درجتهم أعلىٰ من الشهداء ، وحيث الاستمرارية في الأجر لقاء ما استفاده الناس من علومهم .

لكن المشكلة في هذه الأيام أن الموازين لدى كثير من الناس قد تغيّرت ، فأصبحت المسألة تنحصر بما يملك من مال ومتاع . وكأن هؤلاء نسوا أن المسألة ليست في أي شيء من حطام الدنيا ، لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ! !

والمسألة ليست إلا بما تملك من علوم ، وإلا كم من الناس أناس يملكون الأموال هنا وهناك ، لكن لا يملكون أي نوع من العلوم ، فترى حياتهم فيها الشقاء والتعاسة ، حتىٰ أموالهم تراها أصبحت وبالاً عليهم .

لكن الميزان الصحيح ، هو ما عبّر عنه الحافظ ابن السّنيّ (ت : ٣٦٤هـ) رحمه الله بقوله :

رضيتُ من الدنيا بقُوتٍ يقيمني ... فلا أبتغي من بعده أبداً فضلا
ولستُ أرومُ القوت إلا لأنه ... يُعين علىٰ علمٍ أرُدُّ به جهلا
فما هذه الدنيا بطيب نعيمها ... لأيسر ما في العلم من نُكتة عِدْلا

هذا هو الميزان الحق ، حيث سطّر التاريخ أروع الأمثلة عن أناسٍ كانوا فقراء وعبيد و. . . ، ثم سلكوا طريق العلم ، فخلّدهم التاريخ إلىٰ ملايين السنين! بينما أناس كانوا يرفلون بالذهب والحرير ، أولاد لخلفاء وأمراء وملوك ، طواهم عالم النسيان حتىٰ كأنهم ما كانوا يوماً ما!!

ذلكم (عطاء بن أبي رباح) رحمه الله تعالىٰ (ت : ١١٥هـ) ، جاء في ترجمة حياته[١] :

كان من سادات التابعين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً .

وقال عنه علماء التاريخ والسير : هو الإمام ، شيخ الإسلام ، القدوة ، العَلَم ، مفتي الحرم ، أبو محمد القرشي مولاهم ، المكيّ ، وكان أسود مفلفلاً ـ أي شديد جعودة الشعر ـ فصيحاً ، كثير العلم ، قال عنه الإمام أبو حنيفة رحمه الله : ما رأيت أحداً أفضل من عطاء .

من الذي رفع عطاء ؟ ماله! جاهه! نسبه! قرابته من الخليفة الفلاني أو الأمير الفلاني! أبداً ، إنما الذي رفع قدره ومقامه هو العلم ، والعلم وحده ، وما زال ذكره بين العلماء وفي الكتب ، وحتىٰ وراثة الأرض ، وفي هذا دليل علىٰ أن العلم هو الذي يخلّد ذكر الإنسان بعد الموت[٢] .
لأن الموت لا ينحصر بموت الجسد ، إنما هناك الكثير من الناس تعيش أجسادهم في الدنيا ، لكنهم في عداد الأموات حقاً ، فهم ميّتون ـ روحاً وعقلاً ـ وهذا ما عبّر عنه سعد الله التفتازاني (ت : ٧٩٣هـ) رحمه الله بقوله :

---

(١) للتوسع يراجع : سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي : ٥/ ٧٩ـ٨٧ .
(٢) كما قال الشاعر :

يمـوتُ قـومٌ فيحيـي العلـمُ ذِكـرَهُـم ‏ ‏ ‏ والجهـل يلحـق أمـواتـاً بـأمـواتِ!!

إِذا خاض في بحر التفكر خاطري   على دُرّةٍ من معضلات المطالب
حَقَرْت ملوك الأرض في نَيْل ما حَوَوْا   ونِلْت المنىٰ بالكتب لا بالكتائب

فرحم الله علماء هذه الأمة ، وأجزل مثوبتهم ، وحشرنا الله وإياهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وجعلنا خير خلف لخير سلف ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *

الخاتمة

في هذه الجولة السريعة في تراجم حياة بعض علماء هذه الأمة رأينا شيئاً عجباً!! رأينا أن الذي وحّد المسلم العربي مع المسلم التركي مع المسلم من كل مكان هو شيء واحد . هو الإسلام ، لأن المسلم لا تحد وطنه حدود جغرافية أو حدود صنعها الاستعمار ، إنما وطن المسلم كما قال السلف الصالح من هذه الأمة :

وإنَّمـا ذُكـر اسـم الله فـي بلـدٍ　　　جعلـت أرجـاءه مـن لـبِّ أوطـانِ

وعزّة المسلم هو بالإسلام الذي ينتمي إليه :

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه　　　إذا افتخـروا بقيـسٍ أو تميـم

ورأينا أن العلماء من هذه الأمة لم يصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه : بالدعة والراحة! ولا بالتلذّذ بأطايب الطعام والشراب ، ولا بالهجوع إلىٰ النوم والهدوء ، ولا بقضاء الأوقات علىٰ شواطئ البحار! ولا بتقطيع الأيام في النوادي وتحت الأضواء الحمراء والموسيقا الصاخبة أو الكلاسيكية!!

إنما آثروا العلم علىٰ الراحة! وآثروه علىٰ الطعام والشراب والملذّات! وآثروه حتىٰ علىٰ الزواج! ورحلوا من بلد إلى آخر ، والواحد منهم كان يردد :

كنفي بعيري إن ظعنتُ ومفرشي　　　كُمّي، وجُنح الليل مطرحُ هودجي!

جاعوا! وفقدوا الألبسة! وأكلوا الحشائش! وأصيبوا بالأمراض

والأسقام! وفقدوا الكتب! وتركوا الأولاد والعيال ورحلوا ، والواحد منهم كان يردد :

بالشام أهلي وبغدادُ الهوىٰ وأنا   بالرَّقمتين وبالفُسطاط خلاّني!

وصبروا على ذلك كله! وضحّوا في سبيل العلم بكل غالٍ ونفيس ، صبروا علىٰ كل الشدائد والمحن ، وهم يرددون قول الله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٥-٦] . ويرددون قول الشاعر :

إذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً   فأضيق الأمر أدناه إلى الفرجِ

لكن السؤال الملحّ : ماذا استفاد السابقون من كل تلك التضحيات ؟!

في الدنيا كان لهم المكانة المرموقة والمقام العالي ، حتىٰ عند الأمراء والملوك ، كما قالوا :

إن الملوك ليحكمون علىٰ الورىٰ   وعلىٰ الملوك لتحكمُ العلماءُ

أما في الآخرة ، فيكفي أنهم في منزلة أعلىٰ من منزلة الشهداء .

إذاً :

ماذا سنستفيد من الوقوف على حكاياتهم وتراجم حياتهم وقصصهم ؟

إن في دراسة تاريخ حياتهم حافز لهذا الجيل ، كي يرىٰ ويسمع ويعي ما كان عليه آباؤه وأجداده ، ليفتخر بأولئك القوم ؛ لا بالممثل الفلاني! أو عارضة الأزياء الفلانية!!! لأن التاريخ وقف مبهوراً أمام سيرة هؤلاء الناس ، ورحم الله القائل :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وكي يتوقف بعض حملة الشهادات الكرتونية ـ وللأسف ـ عن التطاول علىٰ علماء السلف الصالح ، فهؤلاء غرّتهم شهاداتهم فظنوا أنهم حصّلوا العلوم كلها ، فانتفخت أوداجهم وراحوا يتبخترون أمام الناس علىٰ أساس

أنهم علماء أفذاذ ، ويصدق عليهم قول عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ عندما يذكر من سبقه :

لا تعرضنّ لذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشىٰ كالمُقعد!!

سائلين الله تعالىٰ أن يجعل من أولئكم السلف الصالح شموعاً تضيء لنا الطريق في هذا الليل الحالك ، وأن يمكننا من قراءة المزيد من سير علمائنا العظام ليكون من ذلك خير ما يثير العزائم ويحرك الهمم ، ويغرس الفضائل والقيم ، وأن يجعل من تلكم النماذج الرفيعة ما يدفعنا ـ وخاصة شبابنا ـ إلىٰ تحمّل الشدائد في سبيل تحصيل العلم ونشره بين الناس ، عسىٰ أن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وبعد ، فإن وُفّقت لإلقاء بعض الأضواء علىٰ هذا الموضوع ، فهذا من فضل الله وتوفيقه ومنته ، وإلا فهو من نفسي الخطاءة ، لكن عذري في ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ، ومن سار على الدرب إلىٰ يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم وتفاسيره .
- كتب الأحاديث النبوية : الصحاح والسنن والمسانيد . .
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، محمد الزبيدي ، ط١ ١٩٧٠م دار الفكر ، دمشق .
- الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ السيوطي ، ط١ ١٩٨٧ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- حقائق العلم في القرآن والسنة ، الدكتور غازي عناية ، ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت (د . ت) .
- الأحكام السلطانية ، للماوردي ، ط١ ١٩٩٦ المكتب الإسلامي ، دمشق .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ط٢ ١٩٩٢ دار الجيل ، بيروت .
- الاعتصام ، للشاطبي ، ط١ ١٩١٣ المكتبة التجارية ، القاهرة .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، للحافظ ابن قيم الجوزية ، ط١ ١٩٩٦ مكتبة وهبة ، القاهرة .
- اشتراكية الإسلام ، الدكتور مصطفى السباعي ، ط٣ ١٩٦٠ ، مؤسسة المطبوعات العربية ، دمشق .

- الأنوار في شمائل النبي المختار ، للإمام البغوي ، ط١ ١٩٩٥ دار المكتبي ، دمشق .

- قيمة الزمن عند العلماء ، عبد الفتاح أبو غدة ، ط١ ٨٤ مكتب المطبوعات الإسلامية ، بيروت .

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، الكاساني ، ط٢ ١٩٨٦ دار الكتب العلمية ، بيروت .

- الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٥ دار المكتبي ، دمشق .

- البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، ط١ ١٩٩٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة ، للحافظ السيوطي ، ط١ ١٩٨٥ دار المدينة المنورة .

- الدين والعلم ، مصطفى الغلاييني ، ط المكتبة العصرية ، صيدا لبنان (د . ت) .

- تفكّر ساعة (حقيقة التفكّر في القرآن والسنة) ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٦ دار النور ، دمشق .

- تاريخ الإسلام ، للحافظ الذهبي ، ط١ ١٩٨٨ دار الكتاب العربي ، بيروت .

- حياة الصحابة ، للكاندهلوي ، ط ١٩٩٢ دار الفكر ، بيروت .

- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، الدكتور يوسف القرضاوي ، ط ١٩٨٤ دار البعث ، الجزائر .

ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للإمام النووي ، ط٢ ١٩٨٥ المكتب الإسلامي ، بيروت .

ـ موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، عبد الله المشوخي ، ط١ ١٩٨٢ مكتبة المنار ، الزرقاء الأردن .

ـ سيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٨ دار الحافظ ، دمشق .

ـ طبقات علماء الحديث ، محمد أحمد الدمشقي الصالحي ، ط١ ١٩٨٩ مؤسسة الرسالة ، بيروت .

ـ طبقات الحفاظ ، للحافظ السيوطي ، ط٢ ١٩٨٣ دار الكتب العلمية ، بيروت .

ـ فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٩ دار المكتبي ، دمشق .

ـ المغني ، لابن قدامة المقدسي ، ط١ ١٩٨٦ دار حجر للطباعة والنشر ، بيروت .

ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ للندوي ، ط١٠ ١٩٧٧ ، دار الأنصار ، بيروت .

ـ بين العلم والدين ، أندرو ديكسون وايت ، ترجمة إسماعيل مظهر ، ط ١٩٣٠ دار العصور ، مصر .

* * *

المحتوى

المحتوى

الباب الأول
منزلة العلم في ميزان الشريعة الإسلامية

الباب الثاني
أكذوبة الصراع بين العلم والدين!!

الباب الثالث
تضحيات في سبيل العلم

الباب الرابع
نتائج تضحيات العلماء في سبيل العلم!!

* * *